الجمهورية التونسية
وزارة التعليم العالي
***
جامعة الزيتونة
المعهد الأعلى لأصول الدين
***

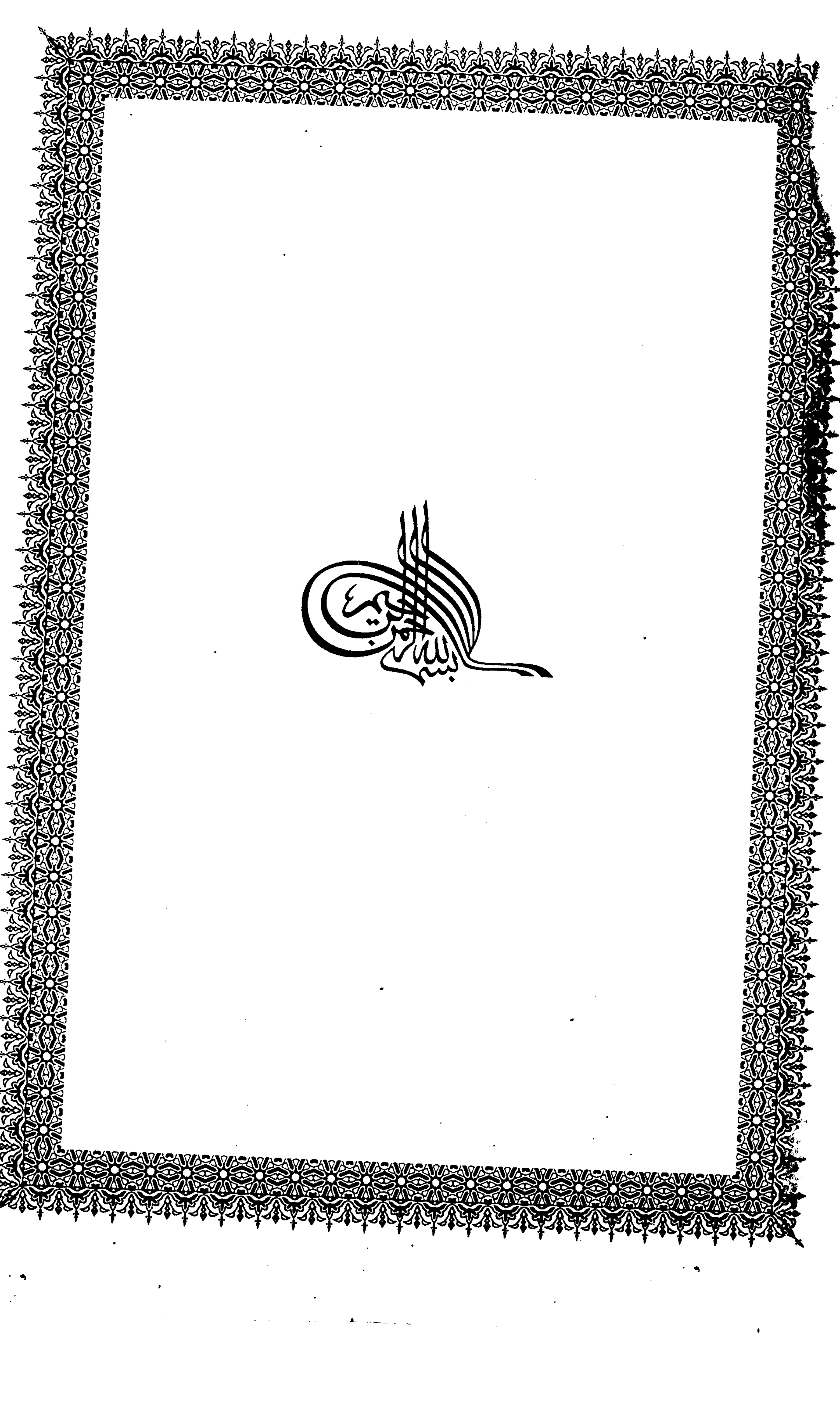
أثر العرب والفرس المسلمين في الحياة السياسية والثقافية والدينية في الساحل الشرقي من القارة الأفريقية خلال القرون الوسطى

رسالة لنيل شهادة الدراسات المعمقة
(قسم الحضارة الإسلامية)

إعداد الطالب:
عبد الرحمن حسن محمود

إشراف الأستاذ:
الدكتور نجم الدين الهنتاتي

السنة الجامعية
1423-1422 هـ - 2002-2001 م


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لقد كانت منطقة ساحل شرق إفريقيا نقطة للاتصال ومحطة لاستقبال الهجرات بالنسبة إلى العالم العربي والإسلامي ،يكون ذلك أحيانا عندما تجتاح الأزمات هذا العالم .ولقد لعبت الهجرات العربية والإسلامية إلى تلك المنطقة دورا بارزا في تشكيل تاريخها طوال العصور الوسطى ، حيث إن الإمارات التي أنشأها العرب والمسلمون ساهمت إسهاما إيجابيا في نقل الحضارة والفكر الإسلاميين إلى الساحل ومن ثم إلى الداخل.

قد لا نبالغ إن قلنا إن منطقة ساحل شرق إفريقيا قد أنقذت أرواح كثيرين ممن كانوا يفرون من المظالم والاضطهاد في بلادهم ، ولكنها في المقابل أخذت الكثير من هؤلاء في سبيل ارتقائها إلى مصاف البلاد المتحضرة من العالم الإسلامي آنذاك . وهو ما يعني أن أهمية هذه المنطقة لا تقل شأنا عن بقية العالم الإسلامي في الشرق و الغرب أو في الأندلس و بقية العالم الإسلامي .

و مع ذلك فإنها لم تنل من الدراسات و الأبحاث ما يتناسب و أهميتها هذه ، على المستوى التاريخي. و قد تكون الصعوبات التي قد يواجهها الباحث في تاريخ هذه المنطقة هي السبب في إحجام المؤرخين العرب بصفة خاصة عن دراسة هذه المنطقة، إلا أن ذلك لا يبرر بأي حال من الأحوال تناسي واحدة من أهم مناطق العالم الإسلامي – كما قلنا – وهذا هو بالذات السبب الأول لاختياري هذا الموضوع . فبعد أن تغلب على ظني أن لا وجود لبحث جادّ له المواصفات العلميّة المطلوبة في الأبحاث الأكاديمية اخترت هذا الموضوع بعنوان" ***أثر العرب و الفرس المسلمين على الحياة السياسية و الثقافية و الدينية في الساحل الشرقي من القارة الإفريقية خلال العصور الوسطى*** " و ذلك بقصد تسليط الضوء على الدور الذي لعبه العرب والفرس المسلمون في تلك المنطقة خلال العصور الوسطى و ما تركوه من آثار مجيدة بقيت طيّ النسيان لدى شريحة كبيرة من العرب و المسلمين المثقفين إلى اليوم .

أما السبب الثاني فهو أنني ارتأيت أن التعريف بالمنطقة الساحلية من الشرق الإفريقي ووضعها تحت المجهر لمزيد من الأبحاث و الدراسات مسؤولية ملقاة على عواتقنا نحن أبناء هذه المنطقة المستعربين بصفة خاصة . ولقد جاء بحثي هذا ليكون خطوة إلى الأمام نخطوها نحو تحمل مسؤوليتنا في هذا الخصوص .

و أما السبب الثالث الذي اخترت من أجله هذا الموضوع فهو أنني خشيت من أن تنجح المخططات التي بدأت في أواسط القرن العشرين من قبل المحاربين للثقافة العربية الإسلامية في ذلك الجزء من القارة الإفريقية ، والتي تهدف إلى قطع الصلة الثقافية بين المنطقة العربية و المنطقة الشرقية الساحليّة من إفريقيا. كان ذلك مثلا عن طريق كتابة اللغتين السواحلية و الصومالية بالحروف اللاّتينيّة .

هذه هي أهم أسباب اختياري لهذا الموضوع بصفة عامة . أما سبب اختياري للعصور الوسطى بالتحديد فهي أن الثقافة العربية الإسلامية تجذّرت خلال هذه الفترة في ساحل شرق إفريقيا.

هذا ، و قد واجهتني صعوبات جمّة خلال إنجازي لهذا البحث ، و أهمها شحّ المصادر و المراجع حيث إن ما كتبه العرب و المسلمون عن هذه المنطقة قديما لا يتجاوز أسطرا معدودة أو صفحات قليلة و من أبرز المصادر العربيّة التي اعتمدت عليها كتاب: ***رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار*** و كتاب ياقوت الحموي: ***معجم البلدان*** و كتاب المسعودي: ***مروج الذهب*** ، و غيرها . و هذه المصادر كما يقول الدكتور جمال زكريا قاسم : "ليست موفية بالحاجة مع أن واضعيها كانوا أولى من غيرهم في تسجيل معلومات وافية عن هذه المنطقة التي كانت تشكل جزءا مهما من العالم الإسلامي"[1]. كما أن مجهود أغلب المتأخرين من المسلمين و العرب لم يتعدّ تقديم مقالات صغيرة عن هذه المنطقة في مجلات غير متخصصة في غالب الأحوال أو في ندوات علمية حول العلاقات العربية الإفريقية . و من أهم ما رجعت إليه من المراجع كتاب: ***الأصول التاريخية*** لجمال زكريا قاسم وكتاب ***الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا*** لحسن أحمد محمود ، و كذلك كتاب: ***انتشار الإسلام و العروبة فيما يلي الصحراء الكبرى*** لحسن إبراهيم حسن. و هذه المراجع كما هو واضح من خلال عناوينها تعالج قضايا عامة تتعلق بإفريقيا على وجه العموم و لا يتجاوز تناولها قضية ساحل شرق إفريقيا عدّة صفحات أو يزيد ، أمّا المقالات العربية التي راجعتها فاذكر منها على سبيل المثال مقال يوسف فضل حسن بمجلة ***المستقبل العربي*** بعنوان "الجذور التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية" و مقالي السر سيد أحمد العراقي في مجلة ***دراسات إفريقية*** تحت عنوان "معالم الحضارة الإسلامية في ساحل شرق إفريقيا في العصور الوسطى" و في مجلة ***البيادر*** بعنوان "سلطنة الكلوة الإسلامية تاريخها و حضارتها 975-1515 م". و كذلك مقال سيد حامد حريز المقدم في وقائع ***الملتقى العربي الأفريقي حول العلاقات بين اللّغة العربيّة و اللّغات الإفريقية الأخرى*** بعنوان "اللّغة السواحلية واللّغة العربية".

و أما ما يتعلق بالمراجع و المقالات الأجنبيّة التي اطلعت عليها فأذكر كتابي

FREEMAN : ***THE EAST AFRACAN COAST*** .

THE MEDIEV AL HISTORY OF THE COAST OF TANGANYIKA .

REUSCH :***HISTORY OF EAST AFRICA*** وكتاب.

ZÖE MARSH AND KINGNORTH : ***A HISTORY OF EAST AFRICA*** وكذلك كتاب

[1] *الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية* ، معهد البحوث والدراسات العربية ،1975م ، ص4

و كلّها كتب و إن كانت مفيدة في مجملها إلا أنها غير موفية للغرض لكونها تستهدف أصلا بتر العلاقات الثقافية بين العالمين العربي و الأفريقي حتى أنها تصور أثر العرب على الحياة الإفريقية بصورة سلبية جدا مما يفقدها الموضوعية المطلوبة في البحث العلمي أحيانا. و على عكس هذه المراجع الأجنبية ، نجد أيضا أن المراجع و المقالات العربيّة تفتقر إلى الموضوعيّة هي الأخرى ، حيث إنها تبالغ في دور العرب الإيجابي في ساحل شرق إفريقيا دون أن تعترف بمساهمة الفرس الشيرازيين في نقل الحضارة و الفكر الإسلاميين إلى هناك .

و بين هذه المبالغة و ذلك الانحياز واجهت صعوبة اختيار المعلومة الصحيحة إلا أنني تخطيت عقبة ذلك بتمحيص الأخبار و تدقيقها . و أما العقبة الثانية من جملة الصعوبات التي واجهتها فهي أنني وجدت في بعض ما رجعت إليه من مراجع معلومات مضللة في تحديد الأماكن و تعيين أسمائها على وجه الخصوص مما تطلب مني السفر إلى عين المكان في ساحل شرق إفريقيا للتأكد من صحة هذا الاسم أو ذاك كما اضطررت أيضا إلى إجراء بعض المقابلات فيما لا بدّ منه من إجراء البحث الميداني بخصوص اللّغات على سبيل المثال ، و قد واجهتني صعوبة أخرى في هذا الإطار حيث كانت بعض هذه اللّغات مجهولة لدي فاضطررت إلى اللّجوء إلى المترجمين ، فكان ذلك مكلفا جدا بالنسبة إليّ ، إضافة إلى مشقة الأسفار بطبيعة الحال.

هذا ، و قد اعتمدت في بحثي هذا المنهج النقدي التاريخي المقارن و قسمته إلى أربعة فصول أساسية موزعة بالتساوي على بابين رئيسين ، جاء الأول منهما بعنوان العرب و الفرس و الحياة السياسية ، بينما جاء الثاني بعنوان : العرب و الفرس و الحياة الثقافية في المنطقة ، إلى جانب المقدمة و الفصل التمهيدي ثم الخاتمة والفهارس .

و قد تناولت في الفصل التمهيدي جغرافية المنطقة ووضعت فيه خريطتين أولهما تقتصر على المنطقة وثانيهما تضم الأجزاء المجاورة لها، و ذلك لبيان موقعها من العالم على وجه التحديد، كما قدمت في الفصل نفسه معطيات تخص سكان المنطقة منذ قديم الزمان .

أما في الفصل الأول من الباب الأول فقد تناولت في مباحثه الثلاثة قضايا الهجرات العربيّة و الفارسية إلى ساحل شرق أفريقيا في العصور الوسطى و ما قبلها، و قد جاء هذا الفصل بعنوان: الهجرات العربية و الفارسية إلى المنطقة. فيما جاء الفصل الثاني من نفس هذا الباب تحت عنوان: أثر الهجرات العربية و الفارسية على الحياة السياسية حيث عالجت في ثنايا مباحثه مسائل المدن و المستوطنات التي أنشأها العرب و الفرس في ساحل شرق إفريقيا، و كذلك أنظمة الحكم التي أقاموها هناك و نهاية ازدهار ممالكهم على أيدي البرتغاليين في العصور الوسطى.

أما الباب الثاني فقد احتوى أيضا على فصلين تناولت في الفصل الأول منه قضايا انتشار الإسلام ومسائل التعليم التي جاء بها الإسلام ، و تطرقت فيه إلى المذاهب و الطرق الصوفية التي تسربت إلى شرق إفريقيا إضافة إلى الآثار الإسلامية البارزة في تلك المنطقة .

وفي آخر المطاف تناولت في الفصل الثاني من الباب الثاني اثر اللغة العربية في اللّغات المحلية و قدمت فيه قوائم بيانية توضح مدى تعلق هذه اللّغات باللّغة العربية .

و أخيرا سجلت في خاتمة هذا البحث أهم النتائج التي توصلت إليها. و لا يفوتني هنا أن أتقدم بالشكر و التقدير الكبير إلى أستاذي المشرف الدكتور نجم الدين الهنتاتي الذي أرشدني إلى كل ما يستقيم به هذا البحث من خلال تقديمه لي كل النصائح القيمة و التوجيهات السديدة التي لولاها لما خرج هذا البحث على ما هو عليه، و إني إذ اشكره و اثنيه على ذلك أسأل اللّه أن يجازيه عني خير الجزاء و أن يطيل عمره بالخير و البركة.

كما لا يفوتني أن أتوجه بجزيل الشكر إلى جميع أساتذتي الأفاضل الذين دربوني و علموني في كنف هذه الجامعة العريقة منذ أن التحقت بها، فجزاهم الله عني خير الجزاء ، كما أشكر أعضاء اللجنة الذين سيناقشون هذا البحث.

عبد الرحمن حسن محمود 2002/06/20

التمهيد

جغرافية المنطقة و سكانها

تعتبر القارة الإفريقية من أقدم القارات الخمس ، و تؤلّف مع آسيا و أوربا ما يعرف بالعالم القديم منذ انفصالها عن القارة القديمة التي أطلق عليها الجيولوجيون " الكتلة الجندوانية".

فالأبحاث الأثرية التي أجريت في ساحلها الشرقي أثبتت أن الإنسان الأول عاش هناك قبل ثلاثة ملايين سنة ، ثم انتشر منها إلى أنحاء العالم[2]، كما أن الكتب التاريخيـــة القديمة تشير إلى هجـــرات كثيرة تمّت نحو ساحل شرق إفريقيا منذ مئات السنين متأتّية من أنحاء آسيا على وجه الخصوص ، و هو ما يعني أن الساحل كان يعجّ دوما بالسكان[3] .

فماذا نعني بالساحل إذن ؟ و إلى أيّ مدى يمتدّ ؟ و ما هي الأجناس التي تقطنه ؟ هذا ما سنجيب عنه في هذا التمهيد .

1 ـ جغرافية المنطقة :

نقصد بالساحل الشرقي الإفريقي الشريط الساحلي الممتدّ من رأس غردفون على شاطئ الشمال الشرقي من الصومال إلى مدينة دوربن في شرقي جمهورية جنوب إفريقيا والجزر التابعة له، و هو شاطئ يتبـــع خطّا مستقيمـــا تقريبـــا، مـــن الشمـــال الشـــرقـــي إلى الجنـــوب الغربي ، و تقع عليه خمس دول إفريقية هي الصومال ، و كينيا ، وتانزانيا، وموزمبيق ، و جمهورية جنوبإفريقيا[4]. وقد أطلـــق الجغرافيـــون العرب على هذا الساحل اسم "ساحل الزنج" و"زنجبار" ، و هي كلمة فارسية تعني ساحل الزنج[5].

---

[2] Öhman, Christer, *Historia, Västerås sweden*, 1996, p.8.،

أحمد محمدين ، محمد محمود ، "علاقة الجزيرة العربية بشرق إفريقيا" ، *مجلة الدارة* ، العدد الثاني ، السنة الثانية، الرياض، 1976م، ص110.

[3] ـ الطحاوي عنايات، إفريقيا الإسلامية ، الكتاب التاسع و الخمسون ، *الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي* ، طبعة لجنة التعريف بالإسلام ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، الجمهورية العربية المتحدة ، 1970م ، المجلد الأول، ص 111 .

[4] ـ Bartholomew, John, and Limitid, Son, *The times Atlas of world*, times books limited, London, 1985, p. 87-93

الجمل شوقي ، *تاريخ كشف إفريقيا و استعمارها* ، مكتبة الأنجلوالمصرية ، القاهرة ، 1971، ص 37 ؛ جمال زكريا قاسم ، *الأصول التاريخية* .... *م.س* ، ص49.

[5] ـ يوسف فضل، حسن ، الجذور التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية ، *المستقبل العربي* ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ، العدد56 ، 1983م، ص84 ـ 85.



منطقة الدراسة :

ساحل شرقي افريقيا

موقع منطقة الدراسة :

ساحل شرقي افريقيا

و من الملاحظ أن العوامل الطبيعية عزلت الساحل عن بقية شرق إفريقيا؛ فالهضبات الممتدة من الشمال إلى الجنوب كانت بمثابة حاجز ضخم خلال فترة طويلة من التاريخ، مما جعل الاتصال بالداخل أمرا صعبا نسبيا ، و نتيجة لذلك ، فرضت على الشعوب هناك أن تتجه إلى الشرق نحو شبه الجزيرة العربية و المحيط الهندي ، و أن ترتبط بهذا العالم عن طريق البحر عبر مضيق باب المندب[6] أو عن طريق المسالك الملاحية في المحيط الهندي . و من أبرز العوامل الجغرافية الأخرى ، نذكرتفاوت كميات الأمطار النازلة بشرق إفريقيا ، فعلى الساحل ينهمر المطر بكميات وفيرة، بينما تقلّ كمّية سقوطه في الداخل، الأمر الذي يؤكد عزل الساحل عن الداخل[7] .

و يعتبر الشريط الساحلي حاليا بالنسبة إلى الدول الخمس المطلة على البحر بمثابة الخط الرابط بينها و بين العالم الخارجي في ميدان الملاحة البحرية ، بل إن دولا أخرى في شرق إفريقيا و جنوبها كزامبيا و ملاوي و أوغندا و إثيوبيا و غيرها تعتمد عليه في التجارة الدولية ، بحيث تنتشر على طوله موانئ صناعية كثيرة إلى جانب الموانئ الطبيعية التي جلبت العرب و الفرس و غيرهما من الآسيويين قديما إلى المنطقة. ومن أهمّ تلك الموانئ الصناعية : ميناء بيرا الموزمبيقي الذي يقصد إليه كل من موزمبيق و ملاوي و زامبيا ، و ميناء دار السلام التانزاني ، و يسدّد أيضا حاجات كل من تانزانيا و بروندي و رواندا . أما الموانئ الطبيعة على الساحل ، فنذكر منها على سبيل المثال مرفأ كلوة كفنجي (Kilwa Kivinji) في تانزانيا ، و ميناءي ممباسا في كينيا ومقديشو في الصومال. هذا و تجدر الإشارة إلى أن هذين الأخيرين قد تمّ تعصيرهما في القرن الماضي ليلبّيا احتياجات كلّ من الصومال و إثيوبيا و كينيا و أوغندا في مجال التصدير و الاستيراد .

و من أهم ما يمتاز به الساحل الشرقي عن السواحل الإفريقية الأخرى نذكر كثرة الجزر التابعة له و القابلة للاستيطان ، و هي منتشرة على امتداد الساحل و بمختلف الأحجام؛ ففي الصومال ، نجد جزيرة كوياما (Kooyoama) التي يعتقد الصوماليون أنها كانت في يوم من الأيام سوقا مهمّا لتجارة العبيد بين الجزيرة العربية و الساحل الشرقي الإفريقي حسب التراث الشعبي، كما نجد جزيرة جومي(Guume) القريبة منها في أقصى جنوب الصومال، و كذلك جزيرتي جولا (Juula) و جاوي (Jaaway)[8].

أما الجزائر الكينية ، فأهمّها أرخبيل لاموا ـــ و منها جزيرة بات التي تأسست فيها أقدم المستوطنات العربية في المنطقة على ما يبدو ـــ و جزيرة بمبا و هي تقع إلى الجنوب من لاموا . أما الجزر

---

[6] ـ مضيق باب المندب يقع بين عدن و جيبوتي . طوله 50 كم و عرضه 26 كم . و عمقه من 60 إلى 320 مترا .

[7] ـ الحويري محمود محمد ، *ساحل شرق إفريقيا من فجر الإسلام حتى الغزو البرتغالي* ، . القاهرة، دار المعارف ، 1986م ، ص9. حسن أحمد محمود ، *الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا* ، دار الفكر العربي ، ط3 1986 م ص386.

[8] ـ Bartholomew, & Limited, Op.Cit.87-93 ؛ الطحاوي ، م.س ، ص 147 .

التابعة للساحل التانزاني ، فقد اشتهرت أكثر من غيرها ربّما لكبر أحجامها مقارنة بمثيلاتها في المنطقة ، و أهمّها جزيرتا زنجبار و مافيا . وإلى الجنوب من الحدود التانزانية الموزمبيقية ، لا نجد سوى جزيرة مدغشقر على بعد أربعمائة كيلومتر من الساحل الموزمبيقي ، إلا أنّها من الناحية الحضارية لا ترتبط بالساحل إلا بأدنى الروابط ، و تدين بحضارتها إلى الشرق و بالتحديد إلى أهل الملايو وإلى الأصول الآسيوية المنحدرة من جنوب شرق آسيا[9]، و كذلك جزر القمر البعيدة نسبيا عن الساحل أيضا .

غير أن ما تجدر الإشارة إليه ، هو أن بعض المصادر العربية تخلط أحيانا بين الجزر وشبه الجزر ، فنجدها تذكر على سبيل المثال كلوة و كأنها جزيرة ، مع أن كلوة تضمّ ثلاث مقاطعات هي كلوة كفنجي (Kilwa Kivinji) (و هي المدينة التاريخية القديمة التي أسسها الشيرازيون حين أتوا إلى المنطقة و هي ليست بجزيرة بدليل أن ابن بطوطة يقول عنها : " و هي مدينة عظيمة ساحلية " و يقول أيضا عن المسلمين فيها : " و هم أهل جهاد لأنهم في برّ واحد مع كفار الزنوج "[10]) ، و كلوة ماسوكو (Kilwa Masoko) (و هي شبه جزيرة و تعتبر مدينة حديثة نسبيا)، و كلوة كسواني (Kilwa Kisiwaani) (و هي جزيرة صغيرة تعتبر بمثابة مستودع لبواخر صيد الأسماك التانزانية) و يستبعد أن تكون وحدها المدينة التاريخية المعروفة التي سيطرت زهاء خمسة قرون و نيف على الساحل من سوفالا جنوبا إلى ضواحي مقديشو شمالا .

هذا ، و قد انتشرت مدن كثيرة على امتداد الساحل في العصور الوسطى ، فاشتهرت منها عواصم تاريخية أصبحت مقرا لسلطنات عربية وفارسية حكمت المنطقة ردحا من الزمن ، ومن أشهرها مدينتا مقديشو وكلوة ، وسنأتي إلىذلك بالتفصيل في المباحث الموالية .

2- سكان المنطقة :

عرفت منطقة ساحل شرق إفريقيا بكونها منطقة جذب بشري وفد الناس إليها على موجات متلاحقة عبر الزمن ، من شتى المناطق المحيطة بها لاسيّما من منطقة الشرق الأوسط، و قد مثّل الطريق المائي عبر باب المندب أحد طريقين رئيسيين لوصول المهاجرين إلى الساحل. و دخلت من هذا المضيق إلى إقليم شرق إفريقيا جماعات الزنوج من البوشمن و الأقزام و البانتو و غيرها من السلالات الزنجية منذ العصر الحجري ، كما استقبلت المنطقة الموجات المتدفّقة من الحاميين من جنوب شبه الجزيرة العربية ، ثم كان

---

9 Walter, Fitsgerald, *Africa a social economic and political geography of its Major Regions*, London, 1967, Tenth Edition p.214-215.

10 ـ *رحلة ابن بطوطة المسماة : تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار* ، تحقيق و تقديم علي المنتصر الكتاني، بيروت 1985م ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، 283/1.

الحميريون من قدامى الساميين العرب الذين عبروا باب المندب إلى شرق إفريقيا فاستقرّوا بالحبشة و المناطق الساحلية المتاخمة لها[11] .

و أما الطريق الرئيسي الثاني ، فقد تمثّل في شواطئ المحيط الهندي التي جلبت إلى المنطقة مهاجرين من شتى المناطق الآسوية القريبة منها و البعيدة من إقليم فارس ، ومن الهند، و من جنوب الجزيرة العربية ، و بالتحديد من عمان و البحرين و اليمن[12] .

و لقد تتابعت الهجرات إلى المنطقة منذ العصر الحجري لتتوغّل الواحدة تلو الأخرى إلى عمـــق الأدغال الإفريقية، ســـواء كان ذلك اختياريا أو تدافعا من بين الشعوب المتلاحقة. ونلاحظ ذلك من خلال انتشار السلالات و الشعوب المختلفة في المنطقة .

و تقسم سلالات إفريقيا بصفة عامّة إلى قسمين كبيرين هما : المجموعة الزنجية في الجنوب، والمجموعة القوقازية في الشمال . و تنقسم المجموعة الزنجية إلى سلالات البانتو المتشابهة اللغات، والسلالات السودانية المتعددة اللغات . أما المجموعة القوقازية فمن الممكن تقسيمها إلى سلالات حامية و سلالات سامية[13] .

و إذا كان هذا التقسيم يسود القارة بصفة عامّة ، فإنّه ينطبق أيضا على الساحل الشرقي من القارة إذ تنتشر المجموعة الزنجية السبّاقة إلى القارة في المناطق الجنوبية من الساحل، و هم الزنوج الذين يتكلّمون لغة البانتو ، و نظرا لكثرتهم و شساعة أوطانهم قسّمهم الباحثون إلى ثلاثة أقسام :

1 ـــ قسم غربي يطلّ على المحيط الأطلسي .

2 ـــ قسم جنوبي يطلّ على المحيطين الأطلسي و الهندي .

3 ـــ قسم شرقي يطلّ على المحيط الهندي .

فالقسم الغربي المطلّ على المحيط الأطلسي ، أي البانتو الغربيون ، لا يعنينا في هذا المقام. أما البانتو الجنوبيون ، فتمتدّ أوطانهم من موزمبيق إلى الأقاليم الغربية من جمهورية جنوب إفريقيا ، و هم ينقسمون إلى وحدات قبلية تتشابه في أسلوب المعيشة والتنظيم الاجتماعي والمعتقدات الدينية، و طرق العيش الغالبة عندهم هي رعي الماشية والزراعة البدائية ، إلاّ أن الرعي أهمّ عندهم ، و هم يرعون البقر و الضأن و الماعز ، ويحصلون منها على الغذاء الرئيسي عندهم و هو اللبن أو الحليب ، و على مادة أولية للصناعة و هي الجلود .

---

11 ـ الطحاوي ، م.س ، ص 111 ـ 113 .

12 ـ الحويري، م.س ، ص 16 ، 34 ـ 35 .

13 دافيدسون بازل ، إفريقيا تحت أضواء جديدة ، ترجمة جمال م. أحمد ، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع ، (د.ت)، ص50-51 و 59 ، Oliver, Roland, & Mathew, Gervase: History of East Africa, Oxford University press, London 1963 p.60 , Walter Op.Cit., p. 128-134

أما الديانة عندهم ، فتغلب عليها عبادة السلف ، كما يعتقد البانتو بكائن إلهي ينسبون إليه الصواعق و المطر و الظواهر الطبيعة الأخرى[14] .

أما البانتو الشرقيون ، فإنهم في إقليم إفريقيا الشرقية الذي تتزاحم فيه السلالات وتتعدّد الشعـــوب فيه ، و هـــو إقليم واقع تحت تأثير المحيط الهندي و خليج عدن. ويعتبر البانتو الشرقيون أكثر السلالات الزنجية قربا من حيث الشكل و الملامح إلى المجموعة القوقازية الحامية مثل ضيق الأنف ، و رقّة الشفتين النسبية ، و السمرة الملطفة، و لكنها تتخذ من الزنج صفة الشعر اللولبي[15] . و قد يكون ذلك من اختلاط بشري بين السلالتين القوقازية الحامية والبانتو الشرقية المتجاورتين في شرق إفريقيا بحيث نشأ منهم شعب خليط ، بعض جماعاته أقرب إلى الحاميين ، و البعض الآخر أقرب إلى الزنوج . و تنتشر هذه السلالات المزدوجة بين شمال تنجانيقا و كينيا وأوغندا والصومال، و منها قبائل مشهورة مثل الماساي ، و السوك ، و التركانا ، و غيرها ، وهي قبائل بانتوية لها بعض الملامح القوقازية[16] .

فالمنطقة الساحلية الممتدة من شرقي كينيا إلى الحدود السياسية بين تانزانيا وموزمبيق هي أهمّ جزء من أقطار البانتو تعرّض للهجرات العربية ، كما تعرض إلى هجرة بعض سكان إقليم فارس من منطقة شيراز[17] ، و لهجرات أخرى من شبه الجزيرة الهندية ومن جنوب شرق آسيا . و يبدو أن الأثر العربي السياسي و الثقافي و الاقتصادي في الإقليم كان أطول و أعمق . على أن أوضح أثر تركه هذا الاتصال المستمرّ يتمثّل في نشوء اللغة السواحلية التي أصبحت فيما بعد لغة التعامل لا في الإقليم الساحلي فحسب ، وإنما في أنحاء شرق إفريقيا الزنجية وحتى إقليم كاتانغا و شابا في أواسط الكونغو الديمقراطية بوسط إفريقيا[18] .

أما المجموعة القوقازية المنتشرة في الأجزاء الشمالية من القارة ، فإن لها نصيبا كبيرا في المنطقة الساحلية أيضا في شرق إفريقيا . و تنقسم المجموعة القوقازية كما أشرنا إلى حامين وساميين، ويتمثّل الحاميون في قبائل البجة في صحراء البحر الأحمر والدناكل والصوماليين في القرن الإفريقي وقبائل الجالا في الهضبة الحبشية و الفولانيين في غرب إفريقيا. و لقد وفد في بداية العصر المسيحي إلى منطقة القرن الإفريقي

---

[14] ـ الطحاوي ، م.س ، ص 125 ـ 127 .

[15] ـ الطحاوي ، م.ن ، ص 116 .

[16] Walter, Op. Cit. p126-127

[17] ـ شيراز هي مدينة في جنوب غربي إيران ، بها مساجد و آثار إسلامية رائعة ، و هي قصبة بلاد فارس . انظر ، البستاني بطرس، *دائرة المعارف الإسلامية* ، بيروت ـ لبنان ، دار المعرفة ، (د.ت) ، مادة "شيراز" ، المجلد 10، ص651.

[18] ـ الطحاوي ، م.س ، ص130

حاميون من هؤلاء من قبائل الجالا والصومال ، فانتشروا في الأجزاء الشمالية من الساحل إلى دواخل الهضبة الحبشية و حتى أواسط كينيا الحالية ، و بذلك أصبح للحاميين نصيب في المنطقة[19].

أما المجموعة السامية المستوطنة في أنحاء شمال إفريقيا و المتمثّلة في العناصر العربية، فإن نصيبها أقلّ في المنطقة من حيث التمركز أو الانتشار ، وهو ما يعني أنها من أواخر العناصر المهاجرة إلى المنطقة. أما من حيث تأثيرها ، فإن الأمور تختلف تماما ، وذلك لأنها كانت من أكثر العناصر المهاجرة إلى المنطقة تحضرا وتطورا . و لم يكن العنصر الفارسي أقل شأنا منهم ، وهو ما سنتعرض إليه بالتفصيل والتحليل في الفصول التالية

---

[19] ـ الطحاوي ، م.س ، ص 130 ـ 131 ،
Walter, Op. Cit. p. 130-131

الباب الأوّل

العرب و الفرس و الحياة السياسية

تمهيد :

لاحظنا فيما مضى كيف انتشرت الشعوب و السلالات الزنجية و الحامية في أنحاء ساحل شرق إفريقيا ، و ألمحنا إلى أن العرب و الفرس كانوا من أواخر المهاجرين إلى المنطقة ممّا جعلهم من الأقليات من حيث الكثافة السكانية رغم ما كان لهم من تأثير كبير على المستوى السياسي و الثقافي و الاقتصادي بصفة خاصة.

وإذا كانت العصور الوسطى تعتبر أفضل مرحلة من مراحل تاريخ ساحل شرق إفريقيا حيث هاجرت جماعات إسلامية عربية و فارسية أسست دولا و حكومات أسهمت بشكل إيجابي في نقل الفكر و التراث الإسلامي إلى هذا الساحل ، فإن اهتمامنا في هذا الباب ينصبّ على رصد مظاهر الأثر الذي كان لهذه الجماعات العربية و الفارسية على المستوى السياسي خاصة .

و يشتمـل هـذا البـاب على فصلين يركز الأول منهما على مسألـة الهجرات العربية والفارسية التي وصلت إلى ساحل شرق إفريقيا بعد الإسلام . و لكنه مع ذلك يتعرّض _بصفة تمهيدية_ إلى أقدم الاتصالات و الهجرات التي عرفتها المنطقة منذ العصور المبكّرة من تاريخها ، بينما يتناول الفصل الثاني من هذا الباب أنظمة الحكم التي أقامها العرب و الفرس ، و كذلك المدن التي أسسوها على طول المناطق الساحلية و الجزر التابعة لها من مقديشو شمالا حتى سوفالا في موزمبيق جنوبا ، كما يتعرّض إلى العلاقات التي كانت تربط بين هذه المدن بعضها ببعض .

الفصل الأول:
الهجرات العربية و الفارسية إلى المنطقة

يربط المحيط الهندي الساحل الشرقي الإفريقي بأنحاء مختلفة من القارة الآسوية الأمر الذي سهّل لشعوب هذه القارة الوصول إلى ساحل شرق إفريقيا ، كما أن البحر الأحمر لم يقف حائلا دون وصول عرب الجنوب إلى المنطقة[20] ، و هذا يعني أن منطقة ساحل شرق إفريقيا كانت معروفة لدى هذه الشعوب منذ عصور قديمة . و قد كشفت لنا الأخبار و المواد التاريخية و الأثرية عن وجود صلات قديمة و مستمرة بين هذه السواحل وشعوب العالم الأخرى ، ليس فقط الشعوب القريبة منها جغرافيا ، بل كذلك الشعوب البعيدة. فما هي هذه الشعوب إذن ؟ و ما هي طبيعة اتّصالها بالمنطقة ؟ هذا ما سنجيب عنه في المباحث التالية .

المبحث الأول : الهجرات الأولى إلى ساحل شرق إفريقيا

يعتبر المصريون القدامى أسبق شعوب العالم اتّصالا بمنطقة ساحل شرق إفريقيا ، وذلك قبل أربعة آلاف سنة ، لّما أرسلوا سفنهم و أساطيلهم التجارية إليها عبر البحر الأحمر و المحيط الهندي بهدف الحصول على البهارات[21] و المرّ[22] و العاج و الأبنوس[23] والأخشاب العطرية التي كانت من مستلزمات الطقوس الدينية في مصر القديمة . و قد عرفت المنطقة لديهم باسم بلاد بونت[24]* ، كما أطلق عليها الإغريق و الرومان اسم أزان أو أزابيا نسبة إلى مملكة عزان التي يعتقد أنها وجدت في جنوب الجزيرة العربية قبل الإسلام[25] . وقد نجح المصريون القدامى في الوصول إلى ساحل شرق إفريقيا منذ الأسرة الخامسة في عهد ساحور رع (2560 ـــ 2420 ق.م) ، ثم كثرت الرحلات إلى المنطقة في عهد الأسرة الحادية عشرة . غير

---

[20] ـ يوسف فصل ، م.س ، ص 80 .

[21] ـ نبت طيّب الرائحة ، و يقال له عين البقر أو بهار البرّ .

[22] ـ مستحضر طيّب الرائحة ، مرّ الطعم يستخرج من شجرة شائكة من فصيلة البخوريات .

[23] ـ شجر من فصيلة الأبنوسيات ، توجد في البلدان الحارة ، خشبه ثمين ، أسود اللون ، صلب العود للغاية .

[24] ـ جوليان ، شارل أندريه ، *تاريخ إفريقيا* ، ترجمة طلعت عوضي أباظة ، مراجعة عبد المنعم ماجد ، دار نهضة مصر، القاهرة ، 1968م ، ص 77 ؛ Reusch ,Richard, History of East Africa, Stuttgart 1954, p11

* هناك خلاف حول التحديد الجغرافي الدقيق لبلاد بونت ؛ فهناك من يرى أنها تضمّ كل ساحل شرق إفريقيا ، و هناك من يرى أنها تمتد من مصوع في إرتيريا إلى قلب الصومال فقط تعني كلمة بونت حسب اللغة الفرعونية القديمة « منابع الحليب والعسل ». انظر جوليان ، م.س ، ص 77 ؛ الحويري ، م.س ، ص 12 ـ 13 Utrikes Politiska institutet, Somalia Djibouti. Stockholm 1999. p. 12

[25] ـ دافيدسون،م.س ، ص73و276 ؛ جمال زكريا قاسم ، استقرار العرب في ساحل شرق إفريقيا ، *حوليات كلية الآداب* ، جامعة عين شمس ، المجلد العاشر ، سنة 1967م ، ص 280 . و له أيضا ، *الأصول التاريخية...م.س* ، ص 50.

أن أشهر رحلة مصرية إلى المنطقة سجّلها التاريخ القديم إنّما هي تلك التي تمّت في القرن الخامس عشر قبل الميلاد عندما أرسلت ملكة حتشبسوت بعثتها التجارية إلى تلك البلاد ، و قد قدّمت لنا هذه البعثة أوّل أخبار مفصّلة عن تلك البلاد من حيث التضاريس و المناخ و النباتات و الحيوانات ومن حيث الحياة العامة للمواطنين ، و غير ذلك مما يمكن أن يكون لنا حجر الزاوية في معرفة ما كان يدور في هذه الأراضي من نشاط في تلك العصور السحيقة[26] .

و يبدو أن المصريين القدامى كانوا ينظرون إلى بلاد بونت و كأنها مقدّسة باعتبار أن البخور التي تستعمل عادة في المعابد المصرية كانت تأتي من تلك البلاد .

و قد سجّلت رسوم و نصوص بعثة حتشبسوت إلى بلاد بونت على جدران بهو بونت في معبد الدير البحري في مصر ، و كان من أسباب إرسال الملكة لهذه البعثة إلى هناك أنها في أحد الأيام أثناء تشييد المعبد قد شعرت فجأة كما لو كان صوت الإله آمون ينادها قائلا : " إن الطريق إلى بلاد بونت سيتمّ اكتشافه و سيمشي الناس في الطريق الذي يقود إلى المرتفعات التي ينبت فيها البخور و سأرعى الحملة إلى تلك البلاد بحرا وبرّا حتى تعود الحملة و معها أشياء غريبة من تلك البلاد المقدّسة"[27] . و ربّما يفهم من هذه المقولة أن القدامى المصريين كانوا قد أتوا أصلا من مناطق ساحل شرق إفريقيا وتدفّقوا إلى الشمال حتى استقرّوا في وادي النيل ، ثم بمرور الزمن نسوا الطريق الذي سلكوه، خاصة و أن الأبحاث الأثرية التي أجريت مؤخّرا أثبتت أن ساحل شرق إفريقيا كان أقدم مكان عاش فيه الإنسان و انتشر منه إلى أنحاء المعمورة كما أشرنا إليه، و ذلك منذ ثلاثة ملايين ونصف سنة ، تليها بيكين (Bejing) منذ مليون ونصف سنة ، ثم نيندر ثال (neaderthal) في فرنسا قبل سبعمائة ألف سنة[28]. وقد يأتي في هذا الإطار ما يزعمه بعض المورّخين الصوماليين المعاصرين من أن لأهل الصومال علاقات عائلية بالمصريين القدماء[29] . و لكن السؤال الذي تصعب الإجابة عنه الآن هو هل كان الصوماليون يعيشون بالمنطقة منذ ذلك التاريخ أم إنهم نزحوا إليها مؤخّرا كغيرهم من السلالات المختلفة ؟

و مهما يكن من أمر فقد استطاعت البعثة أن تحقّق الهدف من إرسالها كما استطاع الفنانون المصريون أن يرسموا لنا صورا عن كلّ مراحل هذه الرحلة والعمليات التجارية ومراسم الاستقبال الذي

---

[26] ـ دافيدسون ، م.س ، ص77–78 . Reusch, History of , p15-16.

[27] مكاوي، فوزي ، الصومال في العصور القديمة ، المسح الشامل لجمهورية الصومال الديمقراطية ، بغداد ، معهد البحوث والدراسات العربية 1982م ص33،

[28] Őhman, Christer, *op.cit.*, p.8-9_

[29] ـ حافظ صلاح الدين ، *صراع القوى العظمى حول القرن الإفريقي* ، عالم المعرفة ، العدد 49 ، جانفي 1982م ، الكويت، ص26 ، دافيدسون ، م.س ، ص98

لاقته السفن المصرية في بلاد بونت . و اللافت للنظر في هذه الرسوم هو مدى تقدم أسلوب التبادل التجاري بين المصريين و أهالي الساحل في تلك العصور المبكّرة ، فقد كان يتمّ بحضور الطرفين كما كان الطرفان يتعاونان في شحن البضائع على السفن[30] .

و لعل الملاحظة الطريفة التي قدّمتها البعثة لنا عن سكان المنطقة جديرة بالاهتمام ؛ فقد صوّر المصريون أهل بونت في سلالتين مختلفتين إحداهما زنجية في ملامحها ، والأخرى حامية حرص المصريون في تصويرها على أن تكون لهم نفس الملامح المصرية[31] وهو ما يتناسب مع ما اعتقده الفراعنة عن الصلات السلالية بينهم و بين أهل بونت [32]. وفي هذا الأثناء ، صوّر الفنانون (إتي) زوجة زعيم بونت (بارحو) بصورة لافتة للنظر تبدو بدينة جدّا و هي تستقبل بمعية زوجها البعثة المصرية ممّا يوحى بأن صورة الجمال المثالي كان عندهم البدانة المفرطة ، كما هو الحال الآن في أنحاء كثيرة من إفريقيا حسب ما يؤكده رويش في تعليقه على بدانة هذه المرأة[33].

و هكذا يمكن القول إن أول اتصال حضاري بمنطقة ساحل شرق إفريقيا كان من نصيب المصريين القدامى ، و إننا ندين بأغلب المعلومات الدقيقة عن تلك المنطقة حينها إلى ما سجّله فنّانو ملكة حتشبسوت من رسوم و نصوص على جدران بهو بونت في معبد الدير البحري في مصر ، و لم تسجّل لنا منذ عصر هذه الملكة و حتى انتهاء العصر الفرعوني أخبار مفصّلة كتلك ، مع ما ذكر من إيفاد حملات بحرية إلى ساحل شرق إفريقيا في عهد رمسيس الثاني و الثالث المصريين في القرن الثاني عشر قبل الميلاد[34].

و لما أصبح السبق الحضاري و الهيمنة السياسية من نصيب الإغريق ، فالرومان ، اختفت بلاد بونت عن الآثار المصرية ، بل و اختفت الدولة المصرية الفرعونية نفسها.

و يبدو أن الإغريق لم يتّصلوا بساحل شرق إفريقيا بالشكل الذي اهتمّ به الفراعنة قبلهم، و يكفي للتدليل على هذا الإشارة إلى أن السفن الإغريقية لم تكن تصل إلى أبعد من رأس غردفون على الشاطئ الشمالي الشرقي للصومال و إن كان يعتقد شار أندريه جوليان أن اليونانيين قد تابعوا المسير بحذاء الشاطئ

[30] ـ مكاوي ، م.س، ص40-41

[31] ـ ن.م ، ص38-39

.Reusch, Op. Cit., p.16

[32] دافيدسون ، المرجع السابق ، ص78

[33] Reusch, Op. Cit. p. 16

[34] ـ الحويري ، م.س ، ص 13 .

حتى بلغوا مدخل قناة موزمبيق[35] . و رغم عدم وجود أدلة قاطعة على وصول تلك السفن إلى أبعد من ذلك في شواطئ المحيط الهندي ، فإنّ كتّاب ذلك العصر قد أشـــاروا إلى هذا الساحل و وصفوا رأس غردفون ، وكان قــد لاحظ بّحار روماني ــ وقيـــل أيضا بحّار إغريقي ــ في عام 45م انتظام الرياح الموسمية ، و ساعد ذلك على معرفة ساحل شرق إفريقيا فوضعت كتب بالإغريقية والرومانية[36] .

و يعتبر كتاب *دليل الملاحة في البحر الإرتيري* أوّل و أهمّ وثيقة أصلية وصفت المدن والمجتمعات و العمليات التجارية بساحل شرق إفريقيا بعدما قدّمته لنا بعثة ملكة حتشبسوت السابقة الذكر . و يذكر بأن الكتاب قد ألّفه بحّار إغريقي مجهول عاش في الإسكندرية ــ على ما يبدو ــ في القرن الأول الميلادي أو بدايات القرن الثاني[37] .

و ممّا يذكر ، أن الساسانيين الفرس قد عرفوا المنطقة أيضا حين ظهروا كقوّة بحرية هائلة في القرن الرابع الميلادي بعد أفول النجم الإغريقي ، و وصلت سفنهم إلى ساحل شرق إفريقيا لأول مرة في تاريخ الملاحة الفارسية . و تذكر الروايات أن الملك الساساني نرسي (292 ــ 302م) عقد صلات مع "زند أفريك شاه" ملك شعب الزنج في شرق الصومال، كما سيطرت فارس منذ زمن الملك بهرام الخامس (420 ــ 439م) حتى قبيل سقوطها في القرن السابع بأيدي المسلمين على الملاحة في الجزء الغربي من المحيط الهندي[38].

و تورد المصادر الصينية أيضا أخبارا عن وجود صلات تجارية بينها و بين ساحل شرق إفريقيا في القرن الخامس الميلادي[39] ، و لكن يبدو أن العرب كانوا لهم وسطاء على السواحل الإفريقية الشرقية ، ذلك أن العرب كانوا قد اشتهروا بصلاتهم التجارية مع ساحل شرق إفريقيا من جهة و أنحاء مختلفة في آسيا من جهة أخرى.

و على الرغم من أنه لا توجد لدينا حقائق ثابتة يمكن الاعتماد عليها في الكيفية التي تمّ بها الاتصال العربي بساحل شرق إفريقيا من حيث التسلسل التاريخي، و من حيث البعد الزمني ، إلاّ أن المصادر

---

[35] ـمكاوي ، م.س ، ص44 ، جوليان ، *م.س* ، ص 77 .

[36] ـ جمال زكريا قاسم ،*استقرار العرب* . *م.س* ، ص 281 ؛ الحويري . م.س ، ص 14 .

[37] ـ دافيدسون ، م.س ، ص 242الغول محمود ، العرب في سواحل شرق إفريقية إلى مجيء البرتغاليين ، *العربي* ، العدد 35 ، الكويت ، 1961م ، ص 108 ؛ جمال زكريا ، *استقرار العرب*... ص 182 ؛ و له أيضا، *الأصول التارخية... م.س*، ص52 ؛ مركز دراسات العالم الإسلامي، *التعاون العربي الإفريقي الواقع الراهن و آفاق المستقبل* ، مالطا ، سلسلة الدراسات السياسية و الاستراتيجية ، 1992م ، ص229.

[38] ـ الحويري ، م.س ، ص 15 .

[39] ـ دافيدسون ، ص255و258 .

الجغرافية و الأبحاث الجيولوجية أكّدت أن الشرق الإفريقي و الشرق العربي كانا يشكّلان رقعة واحدة حتى انفلقت قشرة الأرض ففصل بينهما البحر الأحمر في العصر البلايستوسين منذ مليون سنة لمّا اندفعت مياه المحيط الهندي على الأجزاء الهابطة بين إفريقيا و آسيا فكوّنت خليج عدن و البحر الأحمر[40] ممّا يعكس عراقة الصلة بين المنطقتين. و كانت سواحل المحيط الهندي و البحر الأحمر تمثّل نقاط تواصل مهمّة بين الطرفين ، و قد استغلّت السفن العربية الرياح الموسمية التي احتفظ العرب و الهنود بأسرارها لزمن طويل[41] .

و يعتقد أن عرب الجنوب كانوا أقدم الشعوب العربية اتّصالا بساحل شرق إفريقيا بحكم الجوار الجغرافي ، و كان لقيام دول معين و سبأ و حمير في اليمن أثر كبير في ازدياد ذلك الاتّصال ، إذ كان التجار اليمنيون يجلبون السلع التجارية من الساحل ، كما لعبت الأزمات السياسية التي كانت تحدث بين الحين و الآخر في تلك الدول دورا بارزا في وصول بعض المغلوبين إلى هناك .

و يعتقد جمال زكريا قاسم أن الاستيطان العربي في ساحل شرق إفريقيا كان بطيئا جدّا، لأن قلّة من هؤلاء العرب كانوا يأتون في بادئ الأمر إلى الساحل في فترات محدودة للتجارة حينا ، و الاستيطان حينا آخر[42] . و لكن يبدو أنّه مع مرور الزمن ، أصبحت الجالية العربية جالية مؤثرة لتمسّكها بزمام الأمور في وقت مبكّر من تاريخ ساحل شرق إفريقيا ، و بالتالي لم يأت إطلاق الإغريق و الرومان على الساحل اسم أزانيا (Azania) صدفة وإنما جاء نتيجة لبروز الملامح العربية بصفة ملحوظة في المنطقة . وتشير بعض المصادر إلى أن سكان مملكة أزان العربية انتقلوا إلى شرق إفريقيا وأسسوا حضارة لهم هناك ، إلى أن تعرضوا لغزوات قبائل الجالا والصومال والماساي التي تسكن الآن منطقة القرن الإفريقي[43] .

و من المرجّح أن تكون آخر الهجرات العربية الجماعية إلى المنطقة قبل الإسلام تلك التي حدثت في القرن الثاني الميلادي إثر انهيار سدّ مأرب عام 120م ، و تفرّق أهل اليمن إلى أنحاء مختلفة من داخل الجزيرة العربية و خارجها[44] .

نستخلص ممّا سبق أن ساحل شرق إفريقيا لم يكن بعيدا عن مسار الحضارة ، بل شارك فيها بشكل أو بآخر ، و قام بدوره الحضاري ، و تعامل مع القوى العظمى في تلك العصور القديمة ، نظرا لما كان يمدّه من سلع ثمينة إلى مختلف الإمبراطوريات التي تعاملت مع سكانه تجاريا من العصر الفرعوني إلى

---

[40] ـ يوسف فضل ، م.س ، ص 80 ؛ أحمد محمدين ، *نفس المقال* ، ص 110 ـ 111.

[41] ـ جمال زكريا ، *استقرار العرب..م.س* ، ص280 ـ 281 ؛ و له أيضا، *الأصول التاريخية...*، م.س،ص50 ـ 51.

[42] ـ جمال زكريا ،*استقرار العرب*...م.ن، ص 279 ؛و له أيضا . *الأصول التاريخية*... . م.ن، ص 49 .

[43] ـ دافيدسون ، م.س ، ص 141و312

[44] ـ جمال زكريا ، *استقرار العرب*...م.س ، ص 280 ؛ الحويري ، م.س ، ص 16 .

العصر الفارسي قبيل الإسلام ، كما كان ملاذا آمنا للمضطهدين السياسيين و للهاربين من الكوارث الطبيعة . و ممّا يدعو إلى الدهشة في هذا الإطار ، أن نرى الآن من يقلّل من شأن تحضّر سكان ساحل شرق إفريقيا مثـــل بيـــورث سميث (Bouorth Smith) ، فقد زعم أن هؤلاء كانوا يأكلون لحوم البشر ويقدّمون الإنسان قربانا و يئدون الأطفال أحياء[45] ، أو حسن أحمد محمود الذي يزعم بأن الزنوج كانوا يأكلون لحوم البشر حتى وقت قريب من القرن الخامس عشر الميلادي [46]، و أن التجارة الصامتة التي تقوم الإشارات فيها مقام اللغة كانت تسود هناك قبل وصول الإسلام إليهم حوالي القرن العاشر الميلادي[47] . و لا يعقل أن تكون بهذه البربرية شعـــوب تعاملت مع أقدم الحضارات الإنسانية منذ العصر الفرعوني بمثل الرقي الحضاري الذي أشرنا إليه ، بل إن مصادر العصور الوسطى التي كان لها اهتمام بالمنطقة وتاريخها تروي لنا عكس ذلك ؛ فعلى سبيل المثال يحدّثنا المسعودي عن بلاد الزنج وسفالة و الوقواق التي كانت دار مملكتهم كما يقول . و فيما يتعلّق بنظام الحكم لدى الزنوج في تلك الأصقاع ، يشير المسعودي إلى أنهم ينتخبون ملكا و يلقّبونه " فليمن" التي تعني ملك الملوك و ابن الربّ الكبير الذي ترجع إليه الكلمة الأخيرة في تدبير الأمور ، و متى جار عليهم و انحرف قتلوه و حرموا ورثته الملك[48].

و إذا أمعنا النظر فيما يقدّمه لنا المسعودي ، أدركنا مدى الرقي و التنظيم الذي وصل إليه أبناء ساحل شرق إفريقيا في ميدان الحكم قبل الإسلام ممّا يتناقض و آراء سميث وحسن أحمد محمود .

و خلاصة القول إن ساحل شرق إفريقيا كان يتفاعل مع التطورات الحاصلة في العالم منذ قديم الزمان بعيدا عن الوحشية و البربرية ، كما كان ميدانا للتجارة والمغامرات خاصة بالنسبة إلى سكان الشرق الأوسط و عوالم المحيط الهندي ، و هو ما مهّد السبيل أمام الهجرات العربية الإسلامية اللاحقة في العصور الوسطى .

---

[45] ـ أرنولد سير توماس ، *الدعوة إلى الإسلام . بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية* . ترجمة و تعليق حسن إبراهيم حسن و عبد المجيد عابدين و إسماعيل النحراوي، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الثالثة ، 1970م، ص397 ؛ الطحاوي ، م.س ، ص142، حسن أحمد محمود ، م.س ، ص432

[46] ن.م ،

[47] ـ حسن إبراهيم حسن ، *انتشار الإسلام و العروبة فيما يلي الصحراء الكبرى شرقي القارة الإفريقية وغربها* ، القاهرة، معهد الدراسات العربية العالية ، 1957م ، ص 40 .

[48] ـ المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين ، *مروج الذهب* ومعادن الجوهر ،دار الكتاب اللبناني ،(د.ت) المجلد الأول ص330و338-339 .

المبحث الثاني : الهجرات العربية بعد الإسلام

بعد أن كانت التجارة الدافع الرئيسي لوصول المهاجرين إلى ساحل شرق إفريقيا قبل الإسلام ، أصبحت لدى العرب دوافع جديدة نتيجة لعوامل متعددة أبرزها المنازعات الدينية و السياسية التي كانت تثور بين المسلمين من حين لآخر ، و كذلك الأحداث الخطيرة التي مرّ بها العالم الإسلامي كسقوط الدولة العباسية على أيدي المغول و غزو تيمورلنك (1336 ــ 1405م) لأجزاء من العالم الإسلامي[49] .

و كانت هذه العوامل و غيرها كافية لتكثيف الهجرات إلى ساحل شرق إفريقيا خلال العصر الإسلامي. و يجمع المؤرخون على أن أوّل جماعة إسلامية حلّت بإفريقيا هم أولئك المهاجرون الأوائل الذين خرجوا إلى الحبشة في شهر رجب من السنة الخامسة للنبوّة[50]، إلاّ أنه ليس من المحقّق ما ذكرته حوليات مقديشو من أن جعفر بن أبي طالب(ت.8هـ/ 629م) أسّس مركزا للدعوة الإسلامية في الصومال لما خرج من مكة إلى الحبشة مهاجرا[51] . ممّا يعني أن هجرة المسلمين الأوائل إلى الحبشة كانت قد وصلت أيضا إلى الأجزاء الشمالية من الساحل الإفريقي الشرقي.

و من المفترض أن يكون الخوارج أول من هاجر من المسلمين إلى ساحل شرق إفريقيا إثر انهزامهم في موقعة النهروان أثناء خلافة علي بن أبي طالب(ت.40هـ/661م)[52]، ولا يستبعد أن يكون اليمنيون و الحضارمة الذين فرّوا نتيجة لحروب الردّة إلى الحبشة قد وصلوا إلى الساحل قبلهم[53] ، إلاّ أنّه ليس هناك ما يؤكّد هذه الفرضيات في الوثائق التاريخية حتى الآن.

و تروي أحداث التاريخ بتواتر ، أن أولى الهجرات العربية الجماعية إلى ساحل شرق إفريقيا في العصور الوسطى كانت في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (65 ــ 86

---

[49] ـ جمال زكريا ، *استقرار العرب...م.س،* ص 285 .

[50] ـ ابن هشام ،السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأنباري وعبد الحفيظ شلبي ، بيروت ، دار المعرفة (د.ت) ، المجلد الأول ص321 ومابعدها، أبو الفداء ، عماد الدين ، إسماعيل ، المختصر في تاريخ البشر ، ط 1 ، الحسينية المصرية المجلد الأول ، ص118-119 .

[51] ـ حمدي السيد سالم، *الصومال قديما و حديثا* ، مقديشو ، 1965م ، 348/1 ؛ العراقي السر سيد أحمد، الإسلام و مراكز الثقافة الإسلامية في إثيوبيا و الصومال ، *ندوة العلماء الأفارقة و مساهمتهم في الحضارة العربية الإسلامية* بغداد ، معهد البحوث و الدراسات العربية ، ، 1985م ، ص 166 .

[52] ـ حسن إبراهيم حسن ، *تاريخ الإسلام السياسي و الديني و الثقافي و الاجتماعي* ، بيروت ، دار الجيل القاهرة، و مكتبة النهضة المصرية ، 1991م، ط13 ، 307/1 ـ 321 ، 333 ـ 339؛ العراقي ، الإسلام و مراكز الثقافة...م.س، ص 167 .

[53] ـ العراقي ، الإسلام و مراكز الثقافة ، م.ن ، ص 165.

هـ /685 ـ 705م) و ذلك على إثر اتباعه سياسة البطش و التنكيل بالقائمين بالحركات المناوئة للدولة الأموية ممّا أدى إلى خروج هجرات عربية بأعداد كبيرة إلى ساحل شرق إفريقيا و انضمامها إلى من سبقوهم ، ليدعموا تأسيس المدن العربية هناك[54]. وقد جاءت تفاصيل هذه الهجرة أن عبد الملك بن مروان لما آلت إليه الخلافة ، قد استعمل الحجّاج بن يوسف الثقفي (ت95هـ/714م) على العراق ، فطمع الحجّاج في فرض سيطرته على عمان ، و لكنّ العمانيين بقيادة سليمان و سعيد ابني عباد الجلندي أبوا الخضوع لتلك الأطماع ، ممّا وضعهم في مواجهة غير متكافئة مع الأمويين . و ممّا يذكر ، أن آل الجلندي تمتّعوا باستقلال ذاتي واسع في بداية العصر الأموي ، فكانوا يسيّرون أمور بلادهم دون الرجوع إلى الخلافة الأموية في دمشق[55] . و يبدو أنهم مع ذلك، لم يقوموا بأعمال تظهر معارضتهم للخلافة أو خروجهم عليها ، كما أن الأمويين كانوا في مواجهات دامية ضدّ حركة الزبيريين و الخوارج[56] و غيرهم ممّن كانوا يزعزعون الخلافة في أماكن أكثر أهمية من إقليم عمان النائي . و قد تعرّض العمانيون أنفسهم إلى خطر هذه الحركات حين أرسل نجدة بن عامر الخارجي (ت.69هـ/688م) جيشا إلى عمّان بقيادة عطية بن الأسود الحنفي ، فاستولى عليها و قتل عباد الجلندي حاكم عمّان آنذاك ، و بذلك صارت عمّان تحت سيطرة الخوارج الذين كانوا من أعنف خصوم الأمويين ، غير أن أهل عمان ظلّوا موالين لآل الجلندي خفية حتى استطاع سعيد وسليمان قتل أبي القاسم الخارجي الذي استنابه عطية بن الأسود في عمّان[57] ممّا مكّنهم من استعادة سيادتهم على البلاد .

---

[54] Reusch,Op. Cit. P. 74 جمال زكريا. *استقرار العرب...*م.س. ص287؛ حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام ، م.س ، 238/1 ـ 245 .

[55] ـ الحجري عامر، *تاريخ العلاقات العمانية الإفريقية بداية التواجد العماني في شرق إفريقيا قبل الإسلام* ، الدوحة ، قطر ، اتحاد المؤرخين العرب ، لجنة تدوين تاريخ قطر ، 1976م ، 776/2.

[56] ـ الخوارج أقدم الفرق الإسلامية ، خرج رجالها على علي بن أبي طالب لأنه رضي بالتحكيم إثر معركة صفين. ومن أهم فرقها الإباضية و الصفرية و الأزارقة . المنجد في الأعلام ، ص 234. لمزيد من التوسع انظر: المقريزي ، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي ، *المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار* ، المعروف بالخطط المقريزية ، بيروت ، دار صادر ، (د.ت) ، ج2 ، ص354-356

[57] ـ لمزيد من التوسع في هذه الأحداث انظر:ابن الأثير أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني ، *الكامل في التاريخ* ، بيروت ، دار الكتاب العربي 1983م ، ط4 ، ج4 ، ص36 وما بعدها .

و قد صادف انتصار الجلنديين قضاء الأمويين على مناوئيهم و استعادة سيطرتهم على الأقاليم الإسلامية في عهد عبد الملك بن مروان ، الأمر الذي دفع الخليفة إلى التفكير جدّيا في بسط سيطرته على منطقة عمان و ما جاورها لسببين اثنين:

أولهما : أن شوكة الأمويين قد قويت و استقر سلطانهم على الأقاليم المتمرّدة ، و لم يعد هناك ما يدعو إلى الخوف من تفاقم الخطر الذي كان يتهدّد خلافتهم في حالة المواجهة مع الجلنديين .

ثانيهما : أن إقليم عمان لم يعد مسالما معهم كما كان الحال في بداية العصر الأموي، بل استولى عليه الخوارج أعداء الأمويين الأشداء ، فكان مصدر قلق بالغ لهم ردحا من الزمن، ممّا أفقد ميزته التي تمتع بها لفترة طويلة كإقليم مسالم يتمتّع باستقلال ذاتي ويحترم سيادة الخلافة الأموية الشكلية عليه .

و من هنا بدأ الصراع بين الخلافة المركزية و أهالي عمان ، و ظلّت قبائل الأزد بقيادة الأخوين تقاتل الأمويين باستماتة ، إلى أن استعان الحجّاج بقبائل نزار العمانية ضدهم، فتمكّن من هزمهم سنة 75 هـ/ 695م . و حين استشعر الأخوان العجز ، لحقا بمن معهما ببلاد الزنج[58] ، و لا يعرف على وجه التحديد أين نزلوا على البرّ ، و يحتمل أن يكونوا نزلوا في بات من أرخبيل لامو[59] ، أو في جزيرة مافيا[60]. و يقول جي كيركمان (J.Kirkman) في هذا الصدد :" و حقيقة أنه لم يذكر بالتحديد المكان الذي رحلوا إليه في أرض الزنج قد يمكن تفسيرها بأنه في ذلك الوقت لم تكن هناك أسماء لأماكن يمكن أن تعني شيئا في عمان لأي شخص سوى التجار (أو الناقوذة) الذين لم تكن أنشطتهم تعتبر جديدة بأن يتذكرها أحد"[61] . و لا يستبعد أن يكونوا قد تعمدوا إخفاء أثرهم خوفا من اللحاق بهم من قبل الأمويين .

و تذكر بعض الروايات أن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان أرسل أخاه بالفعل إلى ساحل شرق إفريقيا بعدما علم بأخبار هجرة تلك الجماعات لملاحقتهم و لمدّ نفوذ الأمويين إلى هناك . و في رواية أخرى ، أن ابنه جعفر هو الذي هاجر إلى ساحل شرق إفريقيا و حكم منطقة كيوايو (Kiwaayu) في

---

58 - الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير ، *تاريخ الأمم و الملوك*. القاهرة . دار المعارف. 1961م ، ج6 ، ص 168-174 ، مركز دراسات العالم الإسلامي ، *التعاون العربي الإفريقي* ، م.س ، ص 231 ، حسن أحمد محمود ، م.س، ص397

59 - عبد الرحمن زكي ، الإسلام و الحضارة الإسلامية في شرق إفريقيا ، *المجلة التاريخية المصرية* ، المجلد 21 ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، 1974م ، ص38.

60 - جمال زكريا ،*استقرار العرب...م.س* ، ص 287 .

61 جي . كيركمان ، *التاريخ المبكّر لعمان الإسلامية في شرق إفريقية* ، حصاد ندوة الدراسات العمانية، سلطنة عمان، وزارة التراث القومي و الثقافة ، نوفمبر 1980م ، المجلد الخامس ، ص 276 ـ 277 .

أرخبيل لامو[62] . ولكن هذه الروايات لم تذكر لنا أي تجدّد للصراعات الأموية الجلندية في ساحل شرق إفريقيا في ذلك الوقت، كما لم تشر إلى تبعية تلك المناطق رسميا للدولة الأموية ، ممّا يوحي بفشل مطاردة الأمويين للجلنديين هناك .

و مهما يكن من أمر ، فإن اهتمام عبد الملك بساحل شرق إفريقيا حقيقة لا تنكر، حتى إن هناك من ينتسب الآن في مدينة برواة (Baraawe)بالصومال إلى المجموعات السورية التي بعثها إلى المنطقة حوالي 77هـ / 696م[63] .

و أما الهجرة العربية الثانية ، فقد تمّت في عام 122 هـ/ 740م، إثر الهزيمة التي لحقت برجال زيد بن علي بن زين العابدين في الكوفة على أيدي رجال الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (105 ــ 125 هـ/ 724 ــ 743م) و ما تلا ذلك من مضايقات تعرّض لها الزيدية[64] ، أجبر الكثير منهم على الفرار و الهجرة إلى ساحل شرق إفريقيا حيث استقروا في ساحل بنادر بالقرب من موقع مقديشو حاليا[65]. وقد اعتبر البعض ــ أمثـال تومـاس أرنولد ــ أن هؤلاء الزيدية كانوا أول من انحدر إلى ساحل شرق إفريقيا ، و ذلك استنادا إلى أحد الكتب التاريخية العربية التي وجدها في كلوة دون فرنسيسكو دالميدا (Don Francisco d'Almeida) حين اجتاح البرتغاليون المدينة ، و في هذا يقول توماس أرنولد : " إن الحقائق التي دوّنت عن المواطن الأولى التي استقرّ فيها العرب على الساحل الشرقي ضئيلة جدا [...] وأن أول من هاجر كانوا جماعة من العرب نفوا لأنهم اتبعوا تعاليم خارجة على الدين [...] وقد سموا إموزيديج و ربّما قصدوا بذلك أمة زيدية نسبة إليه (زيد) و لا يبعد أن يكون زيد الذي أشير إليه هنا هو زيد بن علي حفيد الحسين"[66] .

و على الرغم من أنه لا توجد لدينا وثائق ثابتة تفنّد صحّة هذا الخبر باعتبار أن تاريخ المنطقة لا يخلو من الاجتهاد في تحليل الروايات الشفاهية التي هي المصدر الوحيد المعتمد لدى المؤرخين في مثل هذه المعلومات في تلك الفترة ، يبدو أن خبر هجرة الأخوين سعيد و سليمان إلى ساحل شرق إفريقيا لم يبلغ

---

[62] ـ أمين محمد محمد ، *الصومال في العصور الوسطى الإسلامية* . ضمن كتاب :المسح الشامل لجمهورية الصومال ، م.س ، ص 63 ـ 64.

[63] ـ *Zindiiq.AbdimaliK, Somaaliya Shalay iyo maanta , Mog. 1976, P. 17*

[64] ـ الزيدية طائفة من الشيعة خرجت في زمن هشام بن عبد الملك بقيادة زيد بن علي حفيد الرسول صلى الله عليه وسلم، فحاربهم و هزمهم الجيش الأموي بقيادة يوسف بن عمر ، و قامت لهم دولة في طبرستان بإيران أسسها الحسن بن زيد ، و هم ينتشرون الآن في اليمن بصفة خاصة . انظر : *المنجد في الأعلام* ، ص 282.

[65] ـ عبد الرحمن زكي ، *الإسلام و الحضارة...* ، *م.س* ، ص38 ؛ حمدي السيد سالم ، *م.س* ، 350/1 .

[66] ـ أرنولد س ، م.س ، ص 377 ـ 378 .

إلى توماس أرنولد وغيره ممّن ذهب إلى هذا الرأي ، و إنه بالنظر إلى تواتر أنباء هذه الهجرة في كتابات أغلب المؤرخين العرب و غيرهم ممّن كان له باع في تناول تاريخ المنطقة ، أمثال هتشتر وكوبلاند و حسن أحمد محمود و غيرهم ، يصحّ لنا القول إن هجرة الأخوين كانت أسبق هجرة إسلامية جماعية إلى ساحل شرق إفريقيا ، و إن الهجرة الزيدية اليمنية كانت الهجرة العربية الجماعية الثانية إلى تلك المنطقة .

و لّما أفل نجم الأمويين، اهتمّ الخلفاء العباسيون أيضا بساحل شرق إفريقيا، بحيث تشير بعض المصادر إلى أن الخليفة العبـــاسي هارون الرشيد (170 ــ 193هـ/786 ــ 809م) لما اعتلى العرش شجّع الهجرة إلى الساحل، و ذلك لِمَا علمه من شهرة عبد الملك بن مروان هناك ، و أرسل بعض رجاله من أجل التشييد و البناء ، فوصلت سفنهم إلى زنجبار و بمبا[67] ، و إن كانت أخبار هذه الهجرة ضئيلة إلى الآن ربّما لأنها لم تكن جماعية.

و في أوائل القرن العاشر الميلادي وصلت الهجرة العربية الجماعية الثالثة إلى ساحل شرق إفريقيا من إقليم إحساء[68] على الخليج العربي إثر الصراع الدموي بين الخلافة العباسية والقرامطة[69]الذين نشروا الرعب في أنحاء الجزيرة العربية ردحا من الزمن ، وقد جاء في أخبار هذه الهجرة أن جماعة من قبيلة الحارث العربية استاءت من استبداد حاكم الإحساء القرمطي ، ففرت بثلاث سفن إلى ساحل شرق إفريقيا تحت قيادة سبعة إخوة ــ ربّما كانوا من أبناء زعيم القبيلة ــ فنــزلوا على الساحل الصومالي بمنطقة بنادر. ويشير سير توماس أرنولد إلى أن هذه القبيلة كانت تقيم على الشاطئ العربي للخليج الفارسي في مكان لا يبعد عن جزيرة البحرين[70] ، ويبدو أن أفرادها تعرّضوا إلى اضطهاد بسبب مذهبهــم السني ممّا دفعهم الى الهــرب إلى ساحــل شرق إفريقيا . و يقول سبنسر ترمنجهام: " كذلك ورد في سجلات مدينة كلوة

---

[67] ـ *John,* Gray, *History of Zanzibar from the middle ages to 1856*, London *Oxford University Press,* 1962, p.11.

[68] إحساء هي مدينة في البحرين على بعد مرحلتين من القطيف إلى الجنوب الغربي ، عمّرت وشتهرت في عصرها، و كان الطاهر القرمطي أول من عمرها و حصّنها . انظر *دائرة المعارف الإسلامية* ، الجزء الثاني.

[69] القرامطة فرقة من الشيعة تنسب إلى حمدان قرمط من دعاة الإسماعيلية ، ظهرت في العراق نحو 258 هـ/871م ، انتشرت في البحرين و اليمن على وجه الخصوص و أثاروا الرعب بين المسلمين ردحا من الزمن ، فقضى عليهم المستنصر بالله الفاطمي. انظر حسن إبراهيم حسن، *تاريخ الإسلام* ، م.س ، 242/4 وما بعدها؛المنجد في الأعلام، ص435

[70] ـ أرنولد ، م.س ، ص 378.

Kilwa أن عددا ممّن يسمّون أنفسهم بأتباع زيد جاؤوا من منطقة الإحساء على الخليج في القرن العاشر و المظنون أنهم كانوا من السنيين الذين فرّوا هربا من الصراع الديني أيام الخلافة العباسية"[71] .

و نلاحظ هنا أن جماعة الإخوة السبعة[72] ادّعوا أنهم من أتباع زيد بن علي حتى لا يصطدموا بجماعة الزيدية الذين سبقوهم ، قبل أن تترسّخ أقدامهم في المنطقة ، إلاّ أنّ حقيقتهم ستظهر لاحقا في مسرح الأحداث و في تاريخ المنطقة بشكل ملحوظ ، وسينشب صراع بينهم و بين الزيدية الذين سينسحبون إلى الداخل في نهاية المطاف[73] .

و تعتبر هذه الهجرة المعروفة بهجرة الإخوة السبعة و التي تمّت حوالي عام 301هـ/ 913م أهمّ هجرة عربية إلى ساحل شرق إفريقيا في العصر الإسلامي من حيث تأثيرها الثقافي و نفوذها السياسي كما سيأتي .

و هناك هجرة عربية أخرى كان لها شأن كبير أيضا في المنطقة و هي هجرة الأسرة النبهانية التي استقرت في بات من أرخبيل لامو في أوائل القرن الثالث عشر ، و تعتبر هذه آخر هجرة عربية جماعية إلى ساحل شرق إفريقيا في العصور الوسطى ، و قد جاءت حوالي عام 1203م إثر مغادرة الملك سليمان بن مظفر النبهاني عمان على رأس جماعة من أتباعه قاصدا جزيرة بات ، و كان ذلك نتيجة لسقوط الأسرة النبهانية في عمان. و نظرا للشخصية التي كان يتمتّع بها الملك النبهاني ، فقد استقبله العرب في الجزيرة استقبالا طيبا ، و كان معظمهم من الخليج ، و قد تزوّج من ابنة حاكم الجزيرة لمكانته هذه[74].

و ممّا يلفت النظر ، أن معظم المهاجرين كانوا من إقليم عمان ـــ بمفهومه الجغرافي الواسع ـــ الذي اشتهر أبناؤه بثوراتهم ضد الحكمين الأموي والعباسي ، و ذلك لأن المذهب الإباضي[75] الذي يعتنقونه يذهب إلى أن الإمامة حقّ لجميع المسلمين متى توافرت في الإمام الشروط ، و أن من حقهم عزل

---

[71] ـ ترمنجهام ، سبنسر . *الإسلام في شرق إفريقيا* . ترجمة و تعليق محمد عاطف النواوي . مراجعة فؤاد محمد شبل، القاهرة، مكتبة الأنجلومصرية ، 1973م ، ص 37 .

[72] جماعة الأخوة السبعة هي جماعة تنتمي إلى قبيلة الحارث العربية التي كانت تقطن بمنطقة الإحساء قرب جزيرة البحرين ، وهي سنية المذهب ، بنت أول ما بنت في ساحل شرق إفريقيا مدينة مقديشو ، انظر : أرنولد ، م.س ، ص378

[73] ـ حسن أحمد محمود ، م.س، ص398 ؛ جمال زكريا ، *استقرار العرب...م.س* ، ص 287 ، 288، و له أيضا، *الأصول التاريخية.... م.س*. ص59.

[74] ـ عبد الرحمن زكي ، *الإسلام و الحضارة العربية* . *م.س* ، ص 40 ؛ جمال زكريا قاسم ، *الأصول التاريخية...، م.ن*، ص 61 ، 62 ، حسن أحمد محمود ، م.س ، ص399

[75] ـ الإباضية فرقة من الخوارج تنسب إلى عبد الله بن إباض ، قاموا بثورات متعددة على الخلفاء أهمها ثورة عبد الله ابن يحيى عام 747م ، و بسطوا نفوذهم على اليمن و حضرموت . انتشرت حركتهم الفكرية و الروحية في عمان وزنجبار و شمال إفريقيا. انظر المنجد في الأعلام ، ص1 .

الإمام أو الثورة عليه إذا ساءت أحواله أو فقد مكانته بين جماعة المسلمين[76] ، و هو ما كان يتناقض و مبادئ الخلفاء الأمويين والعباسيين على السواء ، ممّا كان ينعكس على العلاقات بين عمان و الخلفاء من جهة وبين عمان و ساحل شرق إفريقيا من جهة ثانية ، إذ تتكثّف الهجرات إلى شرق إفريقيا كلّما توترت علاقة العمانيين بدمشق و بغداد .

هذا ، و كان لموقع عمان الجغرافي أثر كبير أيضا في توجيه سكانها إلى الملاحة والاندفاع إلى ساحل شرق إفريقيا كلّما شعروا بخطر داهم[77] ، و لعلّنا لا نبالغ إن قلنا إن ساحل شرق إفريقيا كان لهم ملاذا آمنا ، بل إن العرب من أنحاء الجزيرة العربية كانوا يلجؤون إليه في أوقات الأزمات السياسية و المذهبية ، كما أن الكوارث الطبيعية ـــ مثل الجفاف ـــ التي كانت تنزل بالعالم الإسلامي جعلت المسلمين يشدّون الرحال إلى ساحل شرق إفريقيا التماسا لمهجر جديد يطيب فيه المقام و تستقيم فيه الحياة[78] .

و الخلاصة، أن الهجرات العربية إلى شرق إفريقيا كانت قد تعدّدت في العصر الإسلامي لأسباب مختلفة ، و أن ساحل شرق إفريقيا كان دوما مهجرا آمنا لجميع المغلوبين، و خاصة منهم العرب الذين تربطهم بالساحل صلات تاريخية قديمة ، وما أن انتهى القرن العاشر الميلادي حتى كانت المدن الساحلية في شرق إفريقيا قد استكملت مقوماتها و سماتها العربية نتيجة لهذه الهجرات المتوالية .

هذا ، و لم تتوقف هجرة المسلمين إلى ساحل شرق إفريقيا على العنصر العربي وحده، بل أسهمت فيها عناصر مسلمة أخرى بنصيب كبير ، فكانت جماعة أتت من منطقة شيراز الفارسية من أبرز المساهمين في تاريخ المنطقة أيضا .

---

[76] ـ جمال زكريا قاسم ، *أثر الاستعمار الأوربي في تفكيك الروابط بين الخليج العربي و شرق إفريقيا* ، الدوحة ، قطر ،اتحاد المؤرخين العرب ، لجنة تدوين تاريخ قطر ، ، 1976م ، 801/2؛ حسن إبراهيم ، *تاريخ الإسلام* ، *م.س* ، 317/1 ـ 320.

[77] ـ جمال زكريا، *أثر الاستعمار الأوربي* ، *م.ن* ، 801/2 .

[78] ـ حسن أحمد محمود، *م.س* ، ص 396 .

المبحث الثالث : هجرة الشيرازيين الفرس

تعتبر الهجرة الفارسية من أهمّ الهجرات غير العربية إلى منطقة ساحل شرق إفريقيا من حيث تأثيرها السياسي بصفة خاصة ، و لكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا متى تمّت هذه الهجرة إلى المنطقة ؟ و ما هي الظروف التي أحاطت بها ؟

يختلف المؤرخون في هذه القضية اختلافا كبيرا ، ممّا يجعل من الصعوبة بمكان تحديد الزمن الذي حدثت فيه هذه الهجرة ، و كذلك الكشف عن ملابساتها ، إلاّ أنهم يتفقون في نقاط معيّنة تتمثل في أن المهاجرين الفرس الذين وصلوا في النصف الأخير من القرن العاشر أو بداية القرن الحادي عشر الميلاديين إلى ساحل شرق إفريقيا كانوا من أصل مدينة شيراز بجنوب إيران .

مساهمة منا في الإجابة عن تلك التساؤلات سنقوم بعرض أهمّ الروايات التي اعتمد عليها المعنيون بتاريخ هذه الهجرة سواء منها الروايات العربية التي عثر عليها في شكل مخطوطات عند بعض العائلات في شرق إفريقيا ، أو الروايات البرتغالية التي اعتمدت على مصادر قد تكون عربية و لم تصل إلينا ، أو تلك القصص الشعبية المتداولة في الأدب الشفاهي السواحلي ، إلى جانب الروايات التي اعتمدت على الأبحاث الأثرية التي أجريت مؤخّرا في منطقة ساحل شرق إفريقيا .

تعتبر المخطوطة العربية التي أهداها السيد سعيد برغش — سلطان زنجبار — إلى السير جون كيرك (Sir John Kirk) الوكيل البريطاني في زنجبار في عام 1877م ، أقدم رواية عربية تؤرخ للهجرة الشيرازية إلى ساحل شرق إفريقيا ، و قد نسخت هذه المخطوطة نقلا عن أوراق الشيخ محي الدين الزنجباري قاضي زنجبار آنذاك (1862م) و الذي يعتقد بأنه ليس مؤلفها و إنما أخذ من كتاب لم يعثر على كامل أجزائه بعد ، و يحمل عنوان *سنة الكلاوية*، و لا يعرف اسم مؤلفه، و إن كان يعتقد بأنه الشيخ عبد الله الصوافي قاضي زنجبار في الفترة التي سبقت مقدم البرتغاليين إلى ساحل شرق إفريقيا . أما المخطوطة[79] نفسها ، فتحمل اسم *السلوة في أخبار كلوة* و تشتمل على تفاصيل الهجرة الشيرازية إلى المنطقة ، إلى جانب أحداث

---

[79] - نشر المخطوطة و حقّقها استرولج أرثر في عام 1895م تحت عنوان *تاريخ كلوة* (History of Kilwa) بأصلها العربي و بترجمتها الإنجليزية ، أما أنا فقد أخذت هذه المعلومات من كتاب : The Medieva) History of the Coast of the Tanganika) p. 45-46 للأستاذ فريمان جرينفل ، أنظر أيضا ، Strong, Arthur, The History of Kilwa, *Journal of the Royal Asiatic Society*, London, 1895, vol.1, p.425 - 448.

و كذلك قام بتحقيق هذه المخطوطة الصليبي محمد، و هذا التحقيق لكتاب السلوة في أخبار كلوة مدرج في كتاب *جهينة الأخبار* . انظر ، المغيري سعيد بن علي ، *جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار* ، عمان ، ، تحقيق محمد علي الصليبي، وزارة التراث القومي و الثقافة ، ط3،1986م، ص90 ـ 149.

الغزو البرتغالي لكلوة في أوائل القرن السادس عشر[80]، و قد ورد في هذه المخطوطة المعروفة باسم *الوثيقة العربية لتاريخ كلوة*، أن جماعة من بلاد شيراز وصلوا إلى ساحل شرق إفريقيا بقيادة السلطان حسن بن علي الشيرازي وأبنائه الستة ، فتوزّعوا على أماكن مختلفة من الساحل ، فكان أن نزلت السفينة الأولى في مانداخا (Mandakha) ، و الثانية في شاقو (Shagu) ، والثالثة في ينبو (Yanbu)، و الرابعة في ممباسا (Mbasa) ، كما نزلت الخامسة في البلاد الخضراء (بمبا Bemb) ، و السادسة في كلوة (Kilwa) ، و أما السابعة فقد نزل أصحابها في هانزوان (Hanzuan)[81].

و تعلّل الوثيقة سبب خروج هؤلاء القوم بأن سلطانهم — حسن بن علي — رأى يوما من الأيام فأرة خرطومها من حديد و هي تقرض الجدران بخرطومها ، فتشاءم بذلك على خراب بلادهم، فلمّا أخبر أولاده بما رآه و شاورهم في ذلك قالوا جميعا : الأمر إلى الله ورسوله ثم إليك ، فقال لهم : إني أرى من رأي الانتقال من هذا البلد ، فوافقوا على ذلك وتوجّهوا بسبع سفن إلى ساحل شرق إفريقيا ، حيث نزل كل مركب بالبلاد التي ذكرناها، و يُحتمل أن يكون الأب نفسه هو الذي نزل في كلوة التي ستصبح فيما بعد سيدة الساحل بأكملـه ، إذ تفيد الوثيقة بـأن السلطـان تفاوض — بهدف شراء الجزيرة — مع صاحبها الإفريقي ، وبوساطة رجل مسلم من المفترض أنه كان عربيا متمرّسا في اللغتين العربية — التي كانت لغة الوافدين على ما يبدو — و السواحلية التي كانت اللغة المحلية ، إلى حدّ مكّنته من أن يكون ترجمانا بين الطرفين[82] ، ممّا يفيد بأن هجرات فردية كانت قد سبقت الشيرازيين إلى هناك .

هذا ، و تجدر الإشارة إلى أن جمال زكريا قاسم يشكّ في صحّة المعلومات التي وردت في مضمون هذه الوثيقة، و خاصة منها تلك المتعلقة بمبررات الهجرة وتاريخها، ويقول أثناء تعليقه عليها : " على أن تعليل هجرة الفرس إلى مدينة كلوة بهذا السبب الواهي لا يرقى إلى المنطق"[83] ، إلا أننا نلاحظ أنه وقع في خطإ أثناء تحليله لمضمون الوثيقة ، ربّما عن غير قصد . فقد قدم نفس الأسباب التي أوردتها الرواية البرتغالية لهذه الهجرة ، و هذا يخالف ما ورد في جوهر الوثيقة العربية ، ممّا يعني أن تعليقه هذا في غير محلّه .

---

[80] ـ *Freeman, The East African Coast, Op.Cit. P34* جمال زكريا قاسم . *الأصول التاريخية*...م.س، ص63 ـ 65 ؛ و له أيضا، *استقرار العرب* ...م.س ، ص 288 ـ 289 .
Freeman, The medieval History , Op.Cit. p.45-46.

[81] ـ Freeman, The medieval hitstory, Op.Cit. , p. 75
Freeman, *The East African Coast, Op. Cit.* p. 35

[82] - المغيري ، م.س ، ص 37 ـ 41 . *FREEMAN, The East African Coast, P. 35*

[83] ـ جمال زكريا قاسم ، *الأصول التاريخية*.... م.س ، ص 67 .

و تناولت الرواية البرتغالية ــ و هي أقدم الروايات الأروبية التي وصلت إلينا ــ أسباب هذه الهجرة بصورة مختلفة ، إذ يذكر صاحبها ــ و هو جوأس دي باروس (Joas de Baros) ــ أن ملك مدينة شيراز ــ و هو حسين ــ قد ترك بعد وفاته ستة أبناء أنجبتهم أمّ فارسية حرّة تمتّ بصلة إلى بعض أمراء فارس ، و ابنا سابعا أنجبته أَمةٌ حبشيّة ، و كان اسم هذا الأخير عليّا ، فازدراه إخوته و عاملوه معاملة مهينة، فعزم على أن يهجر وطنه و يبحث عن موطن آخر لا يتعرّض فيه إلى مثل هذ الميز، فغادر هو و أهله و جماعة صغيرة من أتباعه شيراز بسفينتين ، متجها إلى ساحل شرق إفريقيا إذ كان قد سمع عن وجود الذهب هناك ، و يقول سليمان عبد الغني مالكي في هذا الصدد نقلا عن جيان : "وكان علي رجلا هماما فأراد أن يتخلص من كراهية إخوته واضطهادهم له ، فبحث عن أرض يطيب له فيها المقام"[84] . و عند مروره على سواحل بنادر ، وجد بها من العرب من كان مذهبه يخالف المذهب الفارسي فتجنبهم ، و لما كان هدفه أن يؤسس مملكة تكون له السيادة المطلقة عليها ، فقد واصل سيره بطول الساحل حتى نزل في كلوة و اشتراها من أهلها المقيمين بها مقابل أطنان من الأقمشة ، شريطة أن ينسحبوا منها إلى الأرض الرئيسية[85] .

و يبدو أن هذه الرواية و إن لم يذكر لنا صاحبها ــ دي باروس ــ المصدر الذي استقاها منه، إلاّ أنه ربّما نقلها عن *سنة الكلاوية* التي لم تصلنا منها سوى بعض الفصول، ومنها الوثيقة العربية السابقة الذكر ، و يميل جرنفيل فريمان ــ حسب ما يقوله جمال زكريا قاسم ــ إلى الاعتقاد بأن أصل المصدرين واحد ، عدا ، أن دي باروس أضاف معلومات عن مصادر أخرى و أغفل أشياء اعتبرها غير هامة[86] .

و مما يعزز هذا الرأي ، انتهاء دي باروس في تأريخه لكلوة إلى نفس المكان الذي انتهى إليه كتاب *السلوة في أخبار كلوة* . هذا ، و الجدير بالذكر ، أن دي باروس قد عثر على مجموعة ضخمة من المخطوطات ، نشر منها تاريخا لكلوة بعنوان Choronica dos Reys de Quiola[87] .

و هنا ، قد يتساءل المرء كيف يمكن لحقير هارب أن يؤسس تلك السلطنة الشهيرة التي عرفت باسم سلطنة الزنج ، ناهيك عن أن يكون له أتباع في بلاده كأولئك الذين هاجروا معه إلى ساحل شرق إفريقيا حسب الرواية . لا بدّ أن هذا يدعو إلى التساؤل أيضا على غرار ما ورد في الوثيقة العربية . إلاّ أن الحقيقة التي لا مراء فيها هي وصول مهاجرين شيرازيين إلى المنطقة ــ و إن كنا لم نجد بعد

---

84 - *FREEMAN, The Medieval History, Op. Cit. P. 75-76*.

85 - أرنولد ،م.س ، ص 378 ـ 379 ؛
FREEMA, *The Medieval History, Op.Cit.* 1962, p. 75-76.

86 - جمال زكريا قاسم ، الأصول التاريخية للعلاقات ، ص69-70

87 م.ن ، ص69 .

سببـــا منطقيـــا لهذه الهجرة ـــ اعتمادا على تواتر ذلك في الروايتين العربية و البرتغالية ، إضافة إلى ما تناقلته الروايات الشفاهية عن تلك الهجرة الفارسية .

و يعتبر ما جاء في الأدب الشعبي هاما جدّا من الناحية الاجتماعية حتى و لو كان موضع شك من الناحية التاريخية[88]. ومن أبرز المؤرخين المعنيين بتاريخ ساحل شرق إفريقيا و الذين اهتموا بجمع هذه القصص الشعبية ، جرنفيل فريمان (Grenvil Freeman) و جون جراي (John Gray) وكذلك ترمنجهام و ريش (Reusch) .

فأما فريمان ، فيذكر لنا قصة تتردد على لســـان المسنين من موطني كلوة كيسواني مفادها أن السلطان علي بن سليمان الشيرازي جاء في سفينة مليئة ببضائع متنوعة من بـــلاد فـــارس و معه أطفالـــه ، و أنه لما وصل إلى كلـــوة طلب من مرمبا صاحب البلاد السماح له بالنـــزول فيها بعد أن أغرقه بالهدايا التي كانت في حوزته مثل الخرز و أنواع من الملابس الملوّنة. وبعد أن سمح له شرع بكسب ودّ المواطنين بإعطائهم هدايا كثيرة ، كل على حسب وضعيته الاجتماعية ، و حين تمكّن من كسب سمعة طيّبة بين المواطنين ، طلب يد ابنة مرمبا صاحب الجزيرة فتزوّج بها فكان ذلك بمثابة مكسب سياسي له في سبيل انتقال سيـــادة الجزيرة إليه. وحسب تعليق فريمان على هذه القصة ، فإن المهاجر الشيرازي الأول إلى ساحل شرق إفريقيا الذي أسس مملكة الزنج _التي استطاعت أن تسود الساحل زهاء خمسة قرون_ لم يكن أكثر من تاجر مغترب استغل النية الطيبة لدى الزعيم المحلي و أتباعه ببعض الثياب ، و وصل إلى أهدافه بمزيج من الحيلة و العنف[89] .

و هناك قصة أخرى حفظها التراث السواحلي و جمعها جون جراي و هي تشير إلى أن قائد جماعة كان ملكا في منطقة شيراز و اسمه دار شاس بن شاه حسب رويش أو دارهاش بن شاه حسب جري ، ترك بلاده بسبب مجاعة اجتاحتها ، و كان بصحبته إخوته و أخواته و ثلاثة من أبناء عمّه و بعض الأتباع والخدم ، فتوجهوا إلى ساحل شرق إفريقيا و نزلوا في أماكن مختلفة منه[90] .

---

[88] ـ ترمنجهام ، م.س ، ص 42 .

[89] ـ FREEMAN, *The East African Coast.., op.cit.*, p.221-222; FREEMAN, *The Medieval History op.cit*, p.74

[90] ـ Gray, *Op. Cit.* p.12; Reusch, *Op.Cit.* p.105

و يقتبس ترمنجهام أيضا من الأدب الشعبي ما يفيد أن سلطانا فارسيا وهو الحسين بن علي أبحر هو وأولاده الستة في سبع سفن حوالي عام 400هـ/1009م و أنشؤوا مستوطنات في المناطق التي نزلوا فيها ، و أبرز هذه المستوطنات كلوة و بمبا و ممباسا و مافيا[91].

و ما يميّز هذه القصّة عن القصص الشفاهية الأخرى ، أنها تذكر تاريخا تقريبيا لوصول هذه الهجرة إلى ساحل شرق إفريقيا أو على الأقل تشير إلى بداية إبحار الحسين ابن علي سلطان شيراز من جزيرة هرمز حسب الرواية .

أما أهم ما يلفت النظر في مختلف هذه الروايات ، سواء منها تلك التي وصلت إلينا عن طريق الوثيقة العربية أو عن طريق المصادر البرتغالية أو عن طريق الأدب الشعبي ، فهو يهمّ الاختلاف في اسم الشخصية المحورية التي قادت هذه الهجرة ، أهو حسن بن علي طبقا للرواية العربية ؟ أم هو علي بن الحسين حسب الرواية البرتغالية ؟ أم ليس هذا و ذلك و إنما هو أحد الأسماء الواردة في القصص الشعبية ؟

أمام هذه الإشكالية ، يلاحظ أن هناك اتفاقا كاملا بين المراجع العربية و الأجنبية في استبعاد الأسماء الواردة في الأدب الشعبي . ثمّ إن هناك ثلاثة اتجاهات مختلفة ذهب إليها المؤرخون بعد ذلك في هذه القضية ، و هي : اتجاه يميل إلى عدم ذكر اسم زعيم هذه الهجرة ، كأن يقول مثلا : " ثم هاجرت جماعة أخرى في الخليج الفارسي بزعامة أحد أبناء أحد سلاطين شيراز "[92] و اتجاه آخر يميل إلى الأخذ بما ورد في الوثيقة العربية، ومن أبرز ممثّليه حسن أحمد محمود و عبد الرحمن زكي[93]. واتجاه ثالث يعتمد على اسم الوثيقة البرتغالية و يتزعّمه توماس أرنولد و أكثر الكتاب الأروبيين[94] . و على الرغم من أخذ جل الباحثين بهذا الاتجاه بما في ذلك المؤرخين العرب[95] لاعتمادهم عادة على الكتابات الأوربية ، فإن الأخذ بالاسم الوارد في الوثيقة العربية أولى على ما يبدو لسببين اثنين :

أولهما : أن كاتبها عاش في الوسط الذي تحدّث عن تاريخه ، ممّا يعني أنّه أدرى بأيامه من أي شخص آخر .

---

[91] - ترمنجهام ، *م.س* ، ص 42 .

[92] - حسن إبراهيم حسن ، *انتشار الإسلام و العروبة* . *م.س* . 1957م ، ص 12 .

[93] - حسن أحمد محمود .م.س . ص398 ؛ عبد الرحمن زكي، *الإسلام ...م.س*، ص29.

[94] - أرنولد ، *م.س* ، ص 378 ، ؛ *Reusch, Op. Cit.* p.102

[95] - انظر جمال زكريا قاسم ، *الأصول التاريخية.... م.س* ، ص 66 ؛ الطيبي أمين ، الوجود العربي في شرق إفريقيا، *مجلة كلية الدعوة الإسلامية* ، العدد 11 ، 1994 م ، طرابلس ، ليبيا ، ص 283 ؛ العراقي ، *الإسلام و مراكز الثقافة ...م.س* ، ص168.

ثانيهما : أن هناك شكـــوكـــا بأن دي باروس صاحب الرواية البرتغالية ربّما نقل معلوماته عن هذه الوثيقة ، و تعمّد إلى تغيير بعض الأمور فيها لتكون مختلفة عنها بعض الشيء ، و قد سبق أن ذكرنا ملاحظة فريمان حول هذا الجانب .

و بناء على ذلك ، يمكن القول إن حسن بن علي هو الذي تزعّم الهجرة الفارسية هذه، غير أن الظروف التي أحاطت بهذه الهجرة تبقى رهن النظر و التحليل ، و ذلك لأن الدلائل و العلل التي قدّمت الروايات و القصص السابقة الذكر تبدو غير كافية، أو بالأحرى قابلة للنقاش .

و في هذا الصدد ، يحاول رويش (Reusch) أن يعطي صورة لهذه الهجرة وسط هذا التاريخ الغامض و المضطرب فيقول : في حوالي عام 346 هـــ/957م، جاء إلى ساحل شرق إفريقيا أمير شيعي هو علي بن حسين ـــ حسب الرواية البرتغالية ـــ من جنوب فارس مع أبنائه الستة في أسطول جيد التسلّح ، مؤلّف من سبع سفن ، و أتى من شيراز الحاضرة الجنوبية لفارس التي كانت ضمن أملاك أسرته ، أو المكان الذي جمع و حشد فيه حملته المسلحة ، جاء باحثا عن وطن جديد يقيم فيه مملكة جديدة . و لمّا وصل إلى ساحل شرق إفريقيا ، نازل حكومة الإخوة السبعة و حدثت سلسلة من المعارك هاجم فيها حصونهم واستولى عليها الواحدة تلو الأخرى، و بعد أن احتل كل الأراضي التابعة لدولتهم ، و استبدل حكامها بحكام تابعين له، قرّر الرحيل إلى الجنوب ، ولمَا لاحظه من خصوبة إقليم لامو و بات ، فقد ألقى مراسيه هناك ، و بعد فترة قصيرة انتقل إلى كلوة التي وجد فيها بعض المسلمين الذين اجتذبتهم التجارة المزدهرة مع المواطنين و وجد الوضع الجغرافي للجزيرة مغريا ممّا أقنعه بالنزول فيها نهائيا . و لكي يمنع أي نوع من النوايا السيئة من جانب المواطنين ، اشترى الجزيرة منهم مقابل أقمشة فارسية بالقدر اللازم لإحاطة الجزيرة[96] .

و الملاحظ في هذا التحليل ، أنه لم يعطنا تفاصيل عن الظروف التي أحاطت بهجرة علي بن حسن هذا و أصحابه ، ممّا يشكك في مصداقية التاريخ الذي قدمه . و هناك إشكالية أخرى تبرز من خلال هذه الفقرة و هي أن علي بن حسن استولى على ساحل بنادر، و هذا يتناقض مع ما ذهب إليه توماس أرنولد وأمثاله من أنه تجنّب مقديشو التي ينتمي سكانها إلى مذهب ديني مختلف عن المذهب الذي ينتمي إليه[97] .

و يعتقد ترمنجهام (ت.1968م) و تشتيك (ت.1965م) أن المهاجرين الفرس ذهبوا أصلا إلى مقديشو و لم يرحلوا جنوبا إلى مافيا و كلوة و الأماكن الأخرى إلا بعد ذلك في القرن الثاني عشر

---

[96] *Reusch, Op. Cit.* p.102-105

[97] ـ أرنولد ، م.س ، ص 379 .

الميلادي[98] ، و هذه النظرية توفّق بين الأدلة المتناقضة التي تتضمّنها المواد الأدبية والأثرية ، و في هذا يقول جون هاتش (Hatch, John) إن النظرية الحديثة التي ينادي بها تشتيك تقول إن معظم الشيرازيين الذين استقروا في شنجوايا (Shangwaya) بدؤوا يهاجرون منها في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي ليستقروا في المدن الساحلية والجزر نحو الجنوب حتى كلوة[99] .

و في الحقيقة، لا يهمّنا هنا تحديد المكان الذي بدأ به الشيرازيون استيطانهم بقدر ما يعنينا تاريخ وصولهم إلى ساحل شرق إفريقيا و الظروف التي دفعتهم إلى هذه الهجرة ، وقد اختلف المؤرخون في تحديد ذلك ، فمنهم من قال إنها حدثت حوالي عام 950م كترمنجهام[100] ، و منهم من جعلها حوالي عام 346 هـ/957م مثل رويش [101] ، و منهم من اكتفى بتحديد تاريخ بناء مدينة كلوة معتقدا بأن ذلك يؤدي إلى معرفة تاريخ هذه الهجرة[102] ، و قد بنيت كلوة حوالي عام 975م.

و إذا كان يستحيل التوفيق بين هذه الآراء ، فيمكن للباحث أن يلجأ إلى ترجيح موقف على آخر ، على أن يبرر ذلك بأدلة منطقية . ومن هنا يحتمل أن رأي هنشز (Hichens) أدعى إلى الإقناع في هذه المسألة . و يقول جمال زكريا قاسم في هذا الصدد : " و الأرجح أن تكون هجرة فرس شيراز إلى شرق إفريقيا قد حدثت بين عامي 1055 و 1100م (447 و 493 هـ) على إثر فرار الشيعة الشيرازيين من وجه طغرل بك السلجوقي الذي غزا شيراز سنة 1055م ، و هذا الرأي نأخذه عن هنشز Hichens"[103]. ويذكر هنشز أن الذي هاجر هو حسن بن علي ـ طبقا للرواية العربية ـ حاكم شيراز بفارس ، و ذلك هربا من وجه طغرل بك التركي و جيشه الذي غزا شيراز في الفترة المذكورة (447 هـ /1055م)[104] .

و يذكر أن الشيرازيين الفرس كانوا من أمراء بني بويه الذين سيطروا على الخلافة العباسية في عصرها الثاني ردحا من الزمن ، و احتلوا المناصب الكبيرة في الدولة كالجيش و القضاء ، و سلبوا الخلفاء

---

98 - Chittck, Neville, *Kilwa An islamic trading city on the East African Coast*, Kenya, Litho L.T.D , Nairobi 1974, Volume. I. p.14-15

99 - Hatch John. *Tanzania, New York*, 1972, p.35

100 - ترمنجهام ، م.س ، ص 10

101 - *Reusch, Op.Cit.* p.102

103 - جمال زكريا قاسم ، *الأصول التاريخية*... ، م.س ، ص 67 .

104 - Hichens, W., Islam in East Africa, London, 1942, p117 ؛ حسن أحمد محمود ، *الإسلام*... م.س، ص398.

سلطتهم و هيبتهم ، و أصبحوا أصحاب الأمر والنهي، حتى ضاق بهم الناس و تبرّؤوا من أعمالهم ، لذلك اضطر أحد الخلفاء العباسيين (القاهر بالله) إلى الاستعانة بقوة السلاجقة الذين تمكّنوا من إزاحة سلطتهم . وبعد أن اشتدت سطوة السلاجقة على بني بويه و أيقنوا بأن لا أمل لهم في استعادة نفوذهم ، فكروا في الهجرة بحثـا عن وطـن جديـد لتأسيـس سلطنـة تحمل أسماءهم و تعيد لهم ماضيهم المجيد ، فتوجّهوا إلى ساحل شرق إفريقيا بأعداد غفيرة تقدر بألف و مائتي رجل على سبع سفن ، و لا يستبعد أنهم نازلوا حينها حكومة الإخوة السبعة كما أشار إليه رويش (Reusch) .

و هكذا نخلص إلى القول إن المهاجرين الفرس قد وصلوا إلى ساحل شرق إفريقيا في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، و كان يتقدّمهم الحسن بن علي الذي نجح في تأسيس دولة الزنج التي كان لها الفضل في قيام عدة مدن إسلامية في المنطقة ، و يبقى السؤال ، ما مدى الأثر الذي تركته هذه الهجرة وغيرها من الهجرات العربية التي سبقتها على المنطقة سياسيا على وجه الخصوص؟

الفصل الثاني:
أثرالهجرات العربية والفارسية على الحياة السياسية

تبين لنا من خلال ما سبق كيف استقبلت منطقة ساحل شرق أفريقيا الهجرات المتعاقبة التي وصلت إليها، وكيف وفرت الأمن والاستقرار لطلا ب السلام الهاربين من الاضطهاد السياسي أو الديني على مر العصور في منطقة الشرق الأوسط وجنوب القارة الآسوية .

وفي فصلنا هذا نستوضح الفرص التي أتيحت للمهاجرين_خاصة منهم العرب والفرس_لتثبيت نفوذهم في المنطقة، وكيف جسدوا هذه الفرص المتاحة لهم على الواقع الملموس.

ولعل السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو إلى أي مدى ساهم العرب والفرس في نقل حضارتهم إلى ساحل شرق إفريقيا التي كانت بلا شك في أمس الحاجة إلى من ينهض بها حضاريا ؟

المبحث الأول: نشأة المدن على الساحل ودور المهاجرين فيها

لاشك أن الحضارة الإسلامية كانت في أوج ازدهارها في الفترة التي تأسست المستعمرات العربية على طول ساحل شرق إفريقيا. ولقد أشرنا إلى أن العصور الوسطى كانت الفترة الذهبية لتاريخ شرق إفريقيا باعتبار أن المنطقة شهدت يومها عمرانا وازدهارا لم يسبق لهما مثيل في تاريخها ، إذ تأسست بها مدن إسلامية تمتعت بقدر كبير من التمدن والازدهار الاقتصادي والثقافي[105] .

وبالنظر إلى أهمية هذه المدن التي أنشأها العرب والفرس في ساحل شرق إفريقيا فإننا نحاول هنا الوقوف على حقيقتها والأسرار الكامنة وراء نشأتها ، ولقد كشفت الأبحاث الأثرية التي أجريت مؤخرا في أنحاء شرق إفريقيا الساحلي عن التقدم الحضاري الذي أحرزته المدن المتناثرة على طول الساحل وعرضه، من غردفان شمالا إلى خليج دلجادوا جنوبا، سواء منها المدن المتبقية حتى الآن أو تلك التي اندثرت لسبب أو لآخر[106] .

وفي كتب الرحالة والجغرافيين العرب نجد معلومات هامة عن هذه المدن أو عن بعضها،وان شكّ كير كمان في صحة ماأورده هؤلاء الكتاب العرب عن المنطقة قائلا: « ومن بينهم لم يزر شرق افريقيا بالفعل سوى المسعودى وابن بطوطة وما يقوله الآخرون هو روايات من الدرجة الثانية أو الثالثة–ليست بالضرورة من قبيل الاختلاف ولكنها أميل إلى سوء الفهم أثناء نقلها من شخص لآخر [107] ».

---

[105] Pearce,Major F. B. Zabzubar The island metropolis of Eastern Africa London,First published 1920, p.46

[106] Ibid

[107] جي.كيريكما، ص275

ويميل الباحثون إلى تكتيل هذه المدن الساحلية بصفة عامة حول ثلاثة عواصم رئيسية يعتقد أن جميع هذه المدن تفرعت عنها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، وتلك العواصم الكبرى هي مقديشو وبات وكلوه، وهي مدن استطاعت كل منها أن تفرض سيطرتها على أحداث ساحل شرق إفريقيا لفترة طويلة من الزمن .

وبالنظر إلى أن المجال لا يسع لنا في هذا المبحث لإبراز كل مدن هذا الساحل فإننا نلقي الضوء على البعض منها . وأبرزها مقديشو التي ذكر ياقوت الحموي أنّها أول بلاد الزنج في جنوب اليمن [108]. وتعتبر مقديشو أول مدينة تأسست على ساحل شرق إفريقيا في العصور الوسطى[109]، وقد اختلف في تاريخ نشأتها. عير أن المتفق عليه هو أنها تأسست على أيدي الاخوة السبعة من قبيلة الحارث التي كانت تقيم بالخليج العربي والتي تحدثنا فيما مضى عن نزوحها إلى ساحل شرق إفريقيا.

وقد أطنب المؤرخون في الحديث عن مقديشو وعن أهميتها التي تكمن في موقعها الجغرافي الذي هو من أصلح مواقع ساحل شرق إفريقيا لإرساء السفن ، وقد عرفه المصريون القدماء وأهل بابل وأشور والفنيقيون والرومان، وكان يعرف لدى الإغريق باسم سيرابيون (Serabion)[110].

ولقد حاول حمدي السيد سالم جمع التفاسير التي تضاربت حول كلمة مقديشو حيث قال البعض إنها تعني مقعد الشيخ وقال آخرون إنها متكونة من كلمة عربية وأخرى فارسية وهما "مقعد" و "شاه" أي الملك. كما أن هناك من يقول إن كلمة مقديشو معناها المكان الذي تتجمع فيه الأغنام للبيع [111].

وإذا عدنا إلى اللغة الصومالية واعتمدنا على النطق الصومالي للكلمة (مُقدِش Muqdisho) وجدنا التفسير الأخير أقرب إلى الصواب ، وذلك أن كلمة "مقدِشُ" (Muqdisho)تعني المكان الذي لا تنتشر فيه الأوبئة الناجمة عن الحيوانات الطفيلية التي تسبب الأمراض للمواشي عن طريق امتصاص دمائها.مما يفيد بأن اسم المدينة ربما اشتق من المكان الذي اختير لممارسة البيع والشراء بين العرب والسكان المحليين الرعاة: أصحاب المواشي والجمال، على اعتبار أن المواشي لا تمرض فيه أثناء التسوق.

وكانت مقديشو من أعظم المدن الساحلية، وتشير الأخبار إلى أنها كانت تتكون من ضاحيتين أساسيتين هما ضاحية حمروين (Xamar weyne) وضاحية شنغان (Shangaanni). فضاحية حمروين

---

108 الحموي ياقوت شهاب الدين أبو عبد الله ، معجم البلدان ،بيروت، دار إحياء التراث العربي (د.ت) ، المجلد الخامس ، ص173

109 FREEMAN, The Medieval history , Op. Cit. p. 75

110 حمدي السيد سال م، م.س ، ص355

111 ن. م ، ص357

(Xamar weyne) كانت تمتد على طول الساحل من كاران : التي كانت تسكن بها القبائل الصومالية المحلية إلى حمروين ، وهو المكان الذي استوطنت فيه الأغلبية العربية في المدينة. وأما شنغان Shangaanni) (فقد كانت تقطن به أغلبية فارسية وان كان يخالطها بعض الصوماليين والعرب. وقد اشتق اسم هذه الضاحية من اسم حي في نيسابور ببلاد فارس تخليدا لذكرى أهل فارس القاطنين بها ، والذين نزح غالبيتهم من نيسابور[112] .

ويبدو أن مقديشو قد تفوقت في المجال الحضاري وازدهرت إلى حد بعيد وفقا لشهادات الرحالة المسلمين في العصور الوسطى أمثال ابن بطوطة[113]. ولكن الذي يلفت الانتباه في تاريخ مقديشو أكثر من غيره هو أنها ساعدت العرب والمسلمين على إنشاء مواطن استقرار لهم على طول الساحل الممتد منها إلى مدينة سو فالا في موزمبيق. ولا نبالغ إن قلنا إنها لعبت في شرق افريقيا دور القاهرة ثم القيروان في غرب افريقيا.

وفد ذكر دي باروس -وهو أول مصدر حديث اعتمد عليه الغربيون في دراسة تاريخ شرق افريقيا- أن مقديشو تأسست على أيدي جماعة عربية هم جماعة الأخوة السبعة واصبح لها وزنها وكيانها ونظمها، كما ذكر أنها أصبحت مركزا يتجمع فيه كل المسلين الوفدين من كل جهات الساحل. وهي أول إمارة حاولت بسط سيطرتها على طول الساحل جنوبا حتى سو فالا[114].

ومن أوائل المدن التي سيطرت عليها مقديشو نذكر مدينتي مركا وبراوى. فمركا هي أقرب مدينة ساحلية إليها وتقع على بعد حوالي مائة كيلو متر إلى الجنوب منها ، وهي واحدة من مجموعة مدن عربية نسب استايغند تأسيسها إلى عبد الملك بن مروان ، حتى إذا جاء الأخوة السبعة إلى الساحل جعلوها من أكبر مدنهم السياسية، وتوجد بها طوائف تنتسب إلى الأخوة السبعة حتى يومنا هذا ، إلا أن العنصر الصومالي هو الغالب فيها[115].

---

[112] حمدي السيد سالم ، م.س، ص357-358
Zindiiq , Op. Cit. P. 36

[113] أنظر ابن بطوطة ، م.س، ص283

[114] Freeman, The East African..., Op. Cit. .P. 84 , Reusch, Op.Cit. p. 85 ,Gray,Op.Cit. P. 22,Stigand,Captain C. H., The land of Zinj Being an account of British East Africa its ancient history and prsent inhabitants, London 1913, p.7 ، أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ص278

[115] Reusch, Op. Cit. P. 85, Stigand , Op. Cit, p.29 ، حمد السيد سالم ، م.س ، ص360 ، عيسان علي ديس ، أثر العرب المسلمين على الحياة السياسية والثقافية في مقديشو خلال العصور الوسطى ، *مجلة المنهل* ، العدد 14 ،افريل – ماي 1994م ، ص53

وقد أورد عيسان علي ديس في هامش مقاله بمجلة المنهل بقلا عن كتاب المختصر في كتاب المختصر في تاريخ البشر لأبي الفداء :أن مركا إمارة إسلامية على المحيط الهندي في الساحل الشرقي لإفريقيا وهي جنوب مقديشو وشمال براوى، ومركا على شاطئ نهر يخرج من مقديشو ويصب على مرحلتين من المدينة في شرقها ومنه فرع يكون خور المركة.

وكانت تتمتع مركا بمركز ممتاز لكونها تقع على الطريق البحري التقليدي بين زنجبار ومقديشو إلى أن اكتشف التجار العرب مدينة براوى التي اسستها جماعة عبد الملك بن مروان من السوريين ، والتي يحتمل أنها أقدم حتى من مدينة مقديشو ، وإن كان هذا الكلام لا يعدو كونه استنتاجا لم تؤكده الروايات التاريخية بعد، هذا وتفيد المعلومات عن هذه المدينة أنها خضعت لحكومة الأخوة السبعة وجماعتهم بُعيد تأسيسهم لمدينتي مقديشو ومركا، وفي عهدهم توسعت المدينة فانتشر البناء في أرجائها [116].

وتنقسم براوى إلى عدة أحياء من أهمها بغداد وبيروني وبلوبازي. ويقال إن اسم المدينة اشتق من اسم ملك الجالا "براوات"[117]. هذا ويزعم عبد الرحمن زكي في مقال له في المجلة التاريخية المصرية أن هذه المدينة لم يذكرها أحد من جغرافيي العرب[118]. والوقع أن الادريسي كان من بين من تحدث عنها في كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق وسماها "براوات"[119].

والى الجنوب من هذه المدن الثلاثة وعلى مسافة بعيدة نسبيا تقع مدينة لامو التي تحمل اسم الأرخبيل الذي يضم أيضا كلا من مدينة بات وما ليندي، وتفترض بعض الروايات أن مدينة لامو قد تأسست على أيدي الأخوين سليمان وسعيد ابني عبادالجلندي.وقد أشرنا إلى أن اغلب المصادر التاريخية التي تناولت تاريخ شرق افريقيا لم تحدد المكان الذي استقرت فيه جماعة الأخوين. وذلك إذا استثنينا بالطبع هشتر الذي اعتمد على كتاب أخبار لامو السابق ذكره.

وإذا كانت الشكوك تحوم حول وجود مدينة لامو فان المؤكد هو أن الجزر التي تضمها لامو قد ذاع صيتها باعتبارها تحوي مدينتين هامتين في تاريخ المنطقة، وهما ما لندي وبات.

فقد استمدت مالیندی شهرتها في العصور الوسطى من التجارة مع أنحاء مختلفة من القارة الأسوية سواء منها تلك المناطق القريبة في الجزيرة العربية ومنطقة الشرق الأوسط أو تلك النائية في الشرق الأقصى وجنوب شرق آسيا. حتى إنها المدينة الساحلية الوحيدة التي ورد ذكرها في السجلات الصينية سنة 1083 م.

---

116 Reusch, Op. Cit. P85,

117 حمدي السيد سالم م.س ، ص359

118 عبد الرحمن زكي ، م.س ن، ص45

119 الإدريسي، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن إدريس الحمودي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق،المجلد الأول، ص58-59

وتشير هذه السجلات إلى زيارة قام بها سفير إفريقي من مالندا تلقى هدايا وفيرة من قبل الملك الصيني. وفي وقت لاحق ردت مالندا الجميل بالمثل بأن بعثت هدايا ثمينة من ضمنها زرافة إفريقية[120].

وقد تأسست هذه المدينة في القرن الثالث عشر الميلادي على ما يبدو وإن كان لا يعرف عن تاريخها القديم سوى القليل ،حيث إن الأبحاث الأثرية لم تكشف لنا الكثير عن آثارها ، ذلك لأن المدينة الحالية بنيت فوق بقايا المدينة القديمة التي دمرها الشيرازيون حين قدموا إلى المنطقة مما صعّب عمليات التنقيب فيها ، وبغض النظر عن تراث هذه المدينة المفقود فإن معظم أهاليها اليوم يرجعون في أصولهم العرقية إلى العنصر الفارسي ولا زلت بقايا المباني الفارسية الطراز التي شيدت فوق المدينة القديمة تشاهد هناك حتى الآن[121].

أما مدينة بات فيعد تاريخها من أغنى ما حفظته لنا الراويات المحلية السواحلية. كما أنها حظيت بجانب كبير من الاهتمام من قبل الباحثين الغربيين أمثال وارنر وبرنز واستيغاند. وقد قام برنز بدراسة الروايات السواحلية المختلفة والمتعلقة بتاريخ المدينة كما وضع استيغاند كتابا بعنوان "في أرض الزنج" (In the land of zinj) يحلل فيه الروايات المحلية التي حصل عليها لإزالة ما علق بها من خيال. ويبدو أن المرجع الأساسي الذي اعتمد عليه هؤلاء الكتاب الأوربيون في كتاباتهم هو أحد الشيوخ المحليين ــويدعى بوانا كيتيني (Buwana kitini)ــالذي تخصص في ترويج الروايات الخاصة بالأسرة النبهانية. ويستفاد من التاريخ الذي ذكره لمدينة بات أنها تأسست في عهد الخلافة الأموية على غرار أغلب المدن الساحلية من *مقديشو إلى سو فالا* ولو أنه لا يشير إلى سنة بعينها أو قرن بعينه[122] ، إلا أن هناك من يعتقد أن هذه المدينة هي التي أسسها الأخوان وليس لامو المذكورة.

وطبقا لحوليات مدينة بات فإنها بدأت تأخذ أهميتها منذ وقت مبكر من القرن الثالث عشر الميلادي ويقال إنها في منتصف القرن الرابع عشر قامت بغزو مدن الساحل بما في ذلك كلوه ، وقد يعود سبب بروزها في هذا القرن بالتحديد إلى وصول النبهانيين إليها وسيطرتهم عليها ، وقد حققت بات قدرا كبيرا من الازدهار حين حلت محل المدن الكبيرة كمقديشو وكلوه تجاريا وسياسيا لفترة من الزمن إثر توسعها على حساب هذه البلدان. وقد كشفت الأبحاث الأثرية عن الازدهار الذي وصلت إليه هذه المدينة حينها ، كما أكد الباحثون توسعها نحو الجنوب حتى مدينة سوفالا على مضيق موزمبيق ، ونحو الشمال حتى مدينة ورشيخ (Warshiikh) الواقعة بالقرب من مقديشو شمالا والتي لم تسبق أن ضمتها أي من

---

120 دافيدسون، م.س ، ص255

121 الحويري ، م.س ، ص106

122 جمال زكريا قاسم، الأصول التاريخية ....، م.س ، ص60-61

مشيخة مقديشو وسلطنة كلوا قبلها [123]. ومع ذلك فإن هناك من يشكّ في صحة تفوق بات في تلك الفترة بدليل أنها كانت مدينة ثانوية قليلة الشأن حين وصل البرتغاليون إليها حتى إنها لم تستطع الصمود أمامهم ولو لفترة وجيزة[124].وهو ما سنبحث فيه لاحقا.

وغير بعيد عن هذه الجزيرة تقع المدينة التي وصفها الجغرافيون المسلمون بأنها مقر ملك الزنج: نعني مدينة ممباسا التي هي موطن قبائل النيكيا . وتروي الروايات المحلية أن أول من حكم هذه المدينة من المهاجرين هو علي بن حسن، ابن سلطان كلوه[125].

ويعتبر ما كتبه ابن بطوطة عن هذه المدينة أهم مصدر يصف أحوالها قبل وصول البرتغاليين إلى الساحل ويشير ابن بطوطة إلى أنها جزيرة كبيرة بينها وبين الأرض الرئيسية مسيرة يومين في البحر[126]، ويبدو أنه لم يدر حول المدينة إذ أن ما يفصلها عن البر الرئيسي ليس بهذا البعد. كما يذكر ابن بطوطة النباتات المختلفة التي تنبت فيها أهمها ما سماه أشجار الزيتون الشديدة الحلاوة كما ذكر أنه لا زرع عند أهل هذه الجزيرة وأن أكثر طعامهم الموز والسمك وأن عمق آبارهم ذراع أو ذراعان[127].

وقد شهد ابن بطوطة على جمال هذه المدينة المتقنة البناء منذ أوائل القرن الرابع عشر[128]. كما وصفها دوات بربوسا (Duarta Barbosa) في بداية القرن السادس عشر وصفا يحفظ لها هذا الامتياز حين قال: (ثمة مدينة إسلامية كبيرة تدعى ممباسا وهي جميلة ذات بيوت رائعة ...وشوارعها منسقة على غرار شوارع كلوه ... وتتزين النساء بالحرير والذهب وهي مركز تجاري ولها ميناء جيد يعج بالسفن الرائحة والغادية ...الخ [129]) ، وقد أطنب زوي مارش وكنغسنوث في الحديث عن هذه المدينة وعن

---

123 . ، Oliver, & Mathew,Op.Cit. P. 119-120, Freeman, The Medieval History Op. Cit. p. 113

124 Oliver & Mathew,Op. Cit. P. 119,-120,151

125 الحويري ، م. س، ص110 ، Pearce, Op. Cit. P. 43

126 ابن بطوطة ، م.س ، ص283

127 ابن بطوطة ، م.س ،ص283

128 ابن بطوطة، م.س ، ص283 ، Marsh, Zoe & G.W. Kingsnorth, A history of East Africa an introductory survey , Cambridge University Press 1972 , P. 25

129 Marsh & Kingsnorth, Op. Cit. P25-26, Pearce, Op. Cit. P65 ،

ازدهارها ورخائها [130]، ولاشك أن ممباسا عاشت آنذاك في رخاء وازدهار وثراء حتى أن نقل ثروتها إلى السفن استغرق خمسة عشر يوما حين نهبها البرتغاليون[131].

وإذا ما انتقلنا من هذه المدينة جنوبا وجدنا هناك زنجبار وهو الاسم الذي اشتهر به الساحل كله مع أن هناك أرخبيلا معينا يحمل هذا الاسم ويتكون من ثلاث جزر رئيسية ، هي زنجبار وبمبا ومافيا إلى جانب عدد آخر من الجزر الصغيرة وجميعها متشابهة في مظاهرها الطبيعية والبشرية. وقد عرفت هذه الجزيرة لدى السواحليين باسم انجويه أو لنجويه أو بنجويه حسب اللهجات المختلفة وكتبها ياقوت الحموي أيضا باسم لنجويه وقال عنها (هي جزيرة عظيمة بأرض الزنج منها سرير ملك الزنج – في إشارة واضحة إلى كثافة أشجارها– وإليها تقصد المراكب من جميع النواحي [132]).

وتروي القصص الشعبية أن هذه المدينة تأسست على أيدي الشيرازيين على غرار كلوه حيث نزل أرض هذه الجزر أبناء مؤسس كلوه وأنشؤوا بها هذه المدينة. ويبد أن زنجبار لم يكن لها شأن يذكر في تلك العصور سوى أن يلجأ إليها سلاطين كلوه إذا تعرضوا لخطر من قبل القبائل الإفريقية التي تقطن قرب مدينتهم . وقد حدث ذلك على الأقل مرة واحدة حوالي عام 1020م حين أغارت قبائل البانتو على أراضي كلوه فهرب سلطانها علي بن الحسن إلى زنجبار ثم رجع منها بعد فترة قصيرة لما تمكن أهالي مدينته من صد القبائل المغيرة [133].

هذا ، وعلى الرغم من أن المعلومات حول زنجبار تنقصنا خلال قرون الإسلام الأولى فإن الآثار القليلة التي عثر عليها تشير بوضوح إلى ذلك الرخاء الكبير الذي نعمت به هذه المدينة ، ولقد بنى أهلها أبنيتهم من الحجر الذي كان يرد إليهم من أنحاء آسوية مختلفة كما سك حكامها نقودهم من النحاس [134]. غير أن الفترة الذهبية للمدينة كانت فترة بوسعيد حين تربعت الجزيرة على عرش صناعة الأحداث في شرق افريقيا بأكمله بعد القرن السابع عشر .

أما كلوه فقد بدأت في الظهور في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي ، على الأرجح ، عند ما وفدت عليها الهجرة الشيرازية السابقة الذكر . وطبقا للروايات المحلية فإن حسن بن علي استقر مع أبنائه

---

[130] Marsh & Kingsnorth , Op. Cit.. p. 25-26

[131] Marsh & Kingsnorth, Op. Cit. P26

[132] الحموي، م.س، ص23 ، الحويري ، م.س ، ص114

[133] Pearce, Op. Cit. P. 43-44 ، ترمنجهام ، م.س ، ص11

[134] الحويري ، م.س ، ص114

في جزيرة كسواني في البداية – وقد أشرنا إلى حيثيات هذا الحدث – إلا أنه سرعان ما سيطر على كل من كلوه ماسوكو وكلوه كفينجي ، فأسس في هذه الأخيرة مملكته الشهيرة . وإذا أخذنا بعين الاعتبار رواية ابن بطوطة التي تقول إن سكان هذه المدينة « في بر واحد مع كفار الزنوج »[135]، يظهر لنا أن المدينة التاريخية التي استقر بها الملوك إنما هي كلوه كفينجي الواقعة على الأرض الرئيسية ، بينما كانت كلوه كسواني هي النواة لمدينة كلوه المزدهرة القوية على حسب ما أورده ترمنجهام نقلا عن الأستاذ كلارك صاحب كتاب تاريخ زنجبار[136].

وتروي الأحداث التاريخية أن كلوه اهتمت فور ظهورها بتجارة الذهب وهي المهنة التي كانت مقديشو تقوم بها ، وبالنظر إلى أن سوفالا كانت مصدر هذه الثروة فإن كلوه قد رأت أحقيتها من مقديشو البعيدة في تحصيل هذا المعدن. وبهذا برزت الزعامة السياسية والاقتصادية لكلوه على كل أرجاء الساحل[137]. ويعتبر القرن الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين أزهى أيام كلوه حيث استثمر أهلها ثروتهاالمعدينة في ترقية بلادهم والنهوض بها فأخذت تظهر أنواع جديدة من البناء والعمران المعتمدة على الأحجار والأسمنت بدلا من الأخشاب والصلصال المتواضع[138].

ويبدو أن هذا النوع من البناء في كلوه ظهر في وقت متأخر من القرن الرابع عشر إذ أن ابن بطوطة لم يذكر ذلك حين زار المدينة ، مع أنه امتدح جمالها ومظاهر العمران السائد فيها قائلا: « ومدينة كلوه من احسن المدن أتقنها عمارة وكلها من الخشب [139] » كما وصف ابن بطوطة سلطان هذه المدينة بالعدل والسخاء كما سيأتي لاحقا.

وأما مدينة سوفالا التي ذكر المسعودي (أنها أقاصي بلاد الزنج وأنها بأسفل بحر الزنج وتتاخم بلاد الواقواق [140]) فيبدو أنها كانت آخر المستوطنات التي أسسها المهاجرون على الساحل أو قصدوا إليها، ويذكر المسعودي في هذا الصدد أيضا أن هذه البلاد كانت غاية مقاصد السفن القادمة من عمان

---

[135] ابن بطوطة، م. س ، ص283

[136] Pearce, p. 42-43 ، ترمنجهام.م.س، ص10-12 .

[137] Marsch & Kingsnoth, Op. Cit. p 23 ، عبد الرحمن زكي، م ن، ص124

[138] ترمنجهام، م.س، ص11-12

[139] ابن بطوطة،م.س، ص284

[140] المسعودي ، م.س ، ص330

وسيراف[141]. وهو ما يوحي بأن الثروة التي كانت تتوفر فيها ربما كانت كافية لهؤلاء التجار فضلا عن المخاطر التي قد يتعرض لها البحارة إذا تجاوزوا هذا المكان. وفي إشارة واضحة إلى هذه المخاطر يقول الحويري نقلا البيروني صاحب كتاب " الجماهير في معرفة الجواهر " « إن المرء لايستطيع أن يركب البحر فيما يلي سفالة الزنج وما من أحد أقدم على هذه المخاطر الحمقاء وكتبت له العودة ليحكي ما شاهدته عيناه[142] ». وذكر ياقوت الحموي أن سوفالا آخر مدينة تعرف بأرض الزنج[143]. وقال عنها ابن الوردي ــ حسب ما أورده الحويري في كيابهــ : « وهي تجاور ارض الزنج وهي ارض واسعة بها جبال فيها معادن الحديد...ومن عجائب ارض سفالة إن بها التبر الكثير ظاهرا زنة كل تبرة مثقالان وثلاث واكثر وهم مع ذلك لايتحلون إلا بالنحاس ويفضلونه على الذهب وارض سفالة متصلة بأرض الواقواق »[144]. أما الرحالة ابن بطوطة فقد ذكر أن سوفالا تبعد عن كلوه مسيرة نصف شهر[145]. ويبدو أن سوفالا لم تكن لها سوى أهمية اقتصادية إذ أن المؤرخين العرب لم يذكروا عنها إلا ما يفيد ثروتها المعدنية الهائلة والمتمثلة في الذهب والحديد بصفة خاصة.

وكيفما كان الأمر فقد اقترن اسم سوفالا بالذهب واشتهرت بوفرته في العصور الوسطى. والملاحظ أن سوفالا لم تكن تعني عند العرب المدينة بعينها فحسب وإنما كانت تشمل البوادي التي كانت تستخرج منها المعادن ، وهي كما يروي المؤرخ البرتغالي بعيدة عن المدينة بمسافة خمسين فرسخا على الأقل غربا، وتسمى هذه الأماكن مانيكا وماتوكا بينما الاشخاص الذين يعملون فيها يسمون بوتونجا[146].

ومن المرجح أن العناصر الغالبة في مدينة سوفالا لم تكن العناصر المهاجرة وإنما كانت العناصر الإفريقية بالدرجة الأولى ، وذلك لوقوعها في عمق القبائل الإفريقية التي لا يؤمن من هجماتها ، و النفوذ الذي تمتع به العرب والفرس هناك إنما كان تجاريا على ما يبدو ، إذ أن المصادر العربية لم تحدثنا إطلاقا عن حكام هذه المدينة كما لم يتشجع أحد من الرحالة العرب على زيارتها.

هكذا يمكن القول إن مدنا عديدة قد تأسست في طول ساحل شرق إفريقيا وعرضه ، بفضل العرب والفرس الذين أقاموا مستوطناتهم في أول الأمر فوق الجزر ، قصد الاحتماء من غارات الشعوب

---

[141] المسعودي ، م.س ، ص124،424

[142] الحويري ، م.س ، ص122-123

[143] الحموي، م. س ، ص224

[144] الحويري ،م.س ، ص123

[145] ابن بطوطة ،م.س ، ص283

[146] الحويري ،م.س، ص124

التي تعيش داخل القارة ، وذلك إذا استثنينا بالطبع تلك المدن التي أنشأت على الأرض الرئيسية في المناطق الشمالية من الساحل كمدن مقديشو ومركا وبراو والتي ربما لم يستشعر المستوطنون خطرا كبيرا من مجاوريها من القبائل الصومالية على ما يبدو . ولكن ما هو نوع الحكم الذي خضعت له هذه المدن طوال السيطرة العربية والفارسية في هذا الساحل ؟

المبحث الثاني الحكم والحياة السياسية في المنطقة

عند الحديث عن نظام الحكم في ساحل شرق افريقيا لا مفر من تقسيم الإقليم إلى ثلاث مناطق نفوذ رئيسية، وهي منطقة الشمال وتتزعمها مشيخة مقديشو، والمنطقة الوسطى تحت زعامة بات، والمنطقة الجنوبية تحت سيادة كلوه.

فالمنطقة الشمالية التي تقع في الأراضي الصومالية الآن وتضم كلا من مقديشو ومركا وبراوى كان نظام الحكم فيها يقوم غالبا على الشورى ، على عكس المنطقتين الجنوبيتين اللتين كانت أنظمة الحكم فيهما وراثية في أكثر الأحيان ، وذلك لأن جماعة الاخوة السبعة التي وضعت اللبنة الأولى لنظام الحكم في مقديشو، وأسست بالتالي المدينة، قد خاضت في البداية حروبا شرسة ضد الزيدية التي سبقتها إلى المنطقة. وفي هذه الحروب شاركت إلى جانب الاخوة السبعة قبائل محلية رجحت كفتهم على كفة الزيدية إلى أن غلبوا عليهم، وانسحب المهزومون إلى الداخل، فلم ير الأخوة السبعة حكمة في أن يستأثروا بالحكم في المدينة دون أحلافهم [147].

ومن هنا بدأوا في وضع الأسس والتشريعات المختلفة التي تكفل لهم الاستقرار والحياة الكريمة، فكوّنوا مجلسا من اثني عشر عضوا من كبار الأعيان من العرب وحلفائهم باسم مجلس المدينة ، وينتخب أعضاؤه وفقا لمعايير السن والحكمة..الخ ، ويقول ياقوت الحموي عن ذلك « إنما يدير أمورهم المتقدمون منهم على اصطلاح لهم... وهم مسلمون لا سلطان لهم ...الخ » [148] . في إشارة واضحة إلى هذا المجلس . وكان ذلك النظام أول وأفضل نظام طبقه العرب والمسلمون في ساحل شرق افريقيا ، وكان لهذا المجلس حق النظر في القضايا المدنية والقضايا الجنائية وفض المنازعات. وهو أعلى هيئة في المدينة بدون منازع ، وحين توسعت المدينة تفرعت منها مجالس أخرى في كل أحياء المدينة. كما أبرمت اتفاقية بين المستوطنين والقبائل الصومالية المجاورة للمدينة . وبموجب هذه الاتفاقية أنشأ مجلس آخر أطلق عليه "المجلس الاتحادي" من أشراف العرب واعيان القبائل بغرض حفظ الأمن وتطبيق العدالة بين الجماعات ووضع حد لهجمات بعض القبائل الرعوية الصومالية على التجار من العرب والفرس. وقد تم إنشاء هذا المجلس بعد أن أصبحت مقديشو عاصمة لساحل بنادر الذي يضم جميع المدن والمناطق الساحلية التابعة لمشيخة مقديشو.

واستمرت هذه المجالس المتمثلة في مجلس المدينة وفروعه المختلفة والمجلس الاتحادي بين العرب والفرس والصوماليين نحو أكثر من مائتي عام إلى أن انتخب أبو بكر فخر الدين – وهو من سلالة الاخوة

---

[147] عيسان علي ديس ، م. س ، ص50-51 . , Zindiiq ,*Op. Cit.* p. 71 ,
Ingrams , (W.H) Zanzibar, Its history and its people , Holand 1967 p. 75-76, Reusch,*Op. Cit.* p. 85

[148] الحموي م. س ، ص173

السبعة – حاكما مطلقا على جميع هذه البلاد. وكان ذلك إعلانا لنهاية عهد الإدارة الفيدرالية المتمثلة في مجلس المدينة المذكور. وربما كان ذلك أيضا بداية نهاية مشيخة مقديشو ، إذ بدأ الانحلال يتسرب إليها نتيجة هذا التحول السياسي مما اضعف شوكتها وفكك قوتها ، حتى إذا جاء الشيرازيون إلى الساحل لم يواجهوا صعوبة تذكر في إخضاعها وإخضاع مستعمراتها[149].

ويبدو أن النظم السلطانية التي تحولت إليها مقديشو قد تطورت بسرعة[150]، ويتضح ذلك من خلال ما أورده ابن بطوطة حين تحدث عن التقاليد المتبعة في مجالسة السلطان ومراسم الاحتفال في المدينة وهو يقول في هذا الصدد : « إذا كان يوم السبت يأتي الناس إلى باب الشيخ فيقعدون في سقائف خارج الدار، ويدخل القاضي والفقهاء والشرفاء والصالحون والمشائخ والحجاج إلى المشور الثاني فيقعدون على دكاكين خشب معدة لذلك، ويكون القاضي على دكانة وحده وكل صنف على دكانة تخصهم، ثم يجلس الشيخ بمجلسه ويبعث إلى القاضي فيجلس عن يساره ثم يدخل الفقهاء فيقعد كبراؤهم بين يديه وسائر هم يسلمون وينصرفون ... ويؤتى بالطعام فيأكل بين يدي الشيخ القاضي والشرفاء ومن كان قاعدا بالمجلس ويأكل الشيخ معهم، وإن أراد تشريف أحد من أمراءه بعث إليه فأكل معه ... ثم يدخل الشيخ إلى داره »[151].

وقد زار ابن بطوطة مقديشو أثناء حكم آبي بكر بن الشيخ عمر بن المظفر في حوالي عام 1330 – 1331م فتعداها إلى كلوه التي يرجح أن تكون في ذروة مجدها في تلك الفترة. وكما سبق أن أشرنا إليه فإن نظام الحكم في كلوه ومثلها في بات كان قد نشأ منذ البداية وراثيا ، ذلك أن مؤسس المدينة الذي تحدثنا عنه سابقا لم يخض أية معركة للسيطرة عليها وبالتالي لم يكن أمامه أي تحد يمنعه من الانفراد بالحكم ثم توريثه لأهله، إذ كان أكثر سكان هذه البلاد من الزنوج[152] الذين لا شأن لهم بالسياسة على عكس مقديشو التي قال عنها ياقوت الحموي(وأهلها كلهم غرباء).

وحسب المصادر التاريخية فإن كلوه كانت أكثر بلاد ساحل شرق افريقيا استقرارا على المستوى السياسي بحيث لم يكن الحكم فيها يخرج عن قبضة عائلات معينة ومحدودة تتداول السلطة فيما بينها وفقا لمعايير معينة. وقد كان توارث السلطة في كلوه للموهوبين والمحبوبين لدى العامة والخاصة من داخل البيت

---

149 مجلة المنهل ، م.س ، ص52–53 Reusch, Op. Cit. p.151

150 Stigand, *Op. Cit.*, p. 11

151 ابن بطوطة ، م.س، ص282

152 ابن بطوطة ، م. س، ص283

الحاكم مهما كانت سنه . وكان هذا سر نجاح سلطنة كلوه على الأرجح في البداية إذ أن السلطان كلما تمتع بالنظر الثاقب و الحكمة كلما كثرت فرص نجاحه ونجاح ملكه[153].

وتذكر المصادر في هذا الصدد أن علي بن بسحت حفيد مؤسس المدينة قد تولى السلطة بعد وفاة جده إثر حث أعمامه والمسنين من أهل الحل والعقد له بذلك، مع أنه كان هناك من هو أكبرمنه سنا ضمن أفراد البيت المالك، فقد كان موهوبا ، ومحبوبا لدى الجيش بصفة خاصة . وعند ما توفي علي بن بسحت تولى العرش عمه داؤود ابن علي ثم ابنه ...الخ . وقد سار نظام الحكم في السلطنة على هذا المسلك إلى أن غزت القبائل الإفريقية المدينة –كما أشرنا إليه– فظهر نظام جديد لوراثة العرش لا يقل شأنا عن النظام القديم، ويقتضي هذا النظام الأخذ بعين الاعتبار مبدأ الأكبر سنا والأعلى مقاما مع جعل الاختيار أو الانتخاب الأساس[154].

وقد استمر هذا النظام حتى عام 524هـ /1129م حين تولى عرش السلطنة سليمان الطاغية الذي يقال إنه وصل إلى العرش عن طريق الحيلة والعنف فقد ادعى أنه ينتسب إلى الأسرة الحاكمة عن طريق أمه . ويعتقد الباحثون أن هذا الرجل هو أول من فتح السبيل أمام انتقال الحكم بين البيوت المالكة المختلفة التي صنعت تاريخ كلوه . وقد توارثت أسرته الحكم وفقا لمبدأ الأكبر سنا في البيت المالك حتى سنة 622هـ / 1225م لما تولى العرش الحسن بن طالوت الذي اغتصب الحكم بالقوة بمساعدة الجنود المقيمين بالمدينة ، ومن ثم أسس أسرة حاكمة جديدة على قاعدة ولاية الحكم للذكر الأكبر سنا[155]. وقد أشارت الوثيقة العربية إلى هذه الأسرة باسم "بيت أبي المواهب [156]"وقد زار ابن بطوطة المدينة زمن حكم أبي المواهب ويرى تشتك أن هذه الأسرة جاءت من اليمن وليست من شيراز[157]. وقد استمر حكمها حتى عام 815 هـ/ 1412م.

---

153 Reusch, *Op. Cit.* p. 128 ،مالكي ، سليمان عبد الغني ، سلطنة كلوة الإسلامية ، القاهرة ، دار النهضة العربية 1986م، ط1 ، ص55

154 Freeman, The medieval history, *Op. Cit.* P. 149, Reusch, *Op. Cit.* P128

155 Freeman, The medievel history, *Op. Cit.* P149-150 , Chittick, *Op. Cit.*, 15

156 Oliver & Mathew, *Op. Cit.* P. 118

157 Chittick, *Op. Cit.* P.15

وبدأ عهد جديد أيضا من هذا التاريخ إثر تولي محمد بن سليمان عرش السلطنة. وسمى الباحثون عهد هذه الأسرة " عصر الأمراء والوزراء " لظهور وظائف جديدة لأول مرة في هذا العهد وأهمها وظيفة الوزير ووظيفة الأمير[158]، كما أضيفت إلى ألقاب السلطان صفات جديدة مثل السلطان الملك العادل[159].

ومن المرجح أن ضعف السلاطين في هذه الفترة قد وصل إلى أدنى مستوى له إذ أن حكمهم كان يذكّر حكم الخلفاء العباسيين الشكلي في أواخر عهدهم وكان مطلق النفوذ في السلطنة بأيدي الوزراء حتى إن بعضهم ارتقى عرش السلطنة وعزل نفسه أمثال الأمير محمد بن بارك والأمير سعيد بن حسن وكذلك الأمير محمد كواب الذي اسند السلطنة إلى نفسه لمدة ثلاثة أسابيع[160].

وهكذا كانت تنتقل السيادة بين هذه البيوت في السلطنة، إلا أنه من الملفت للنظر أن جميع هذه الأسر المالكة قد حرصت على إبقاء نفوذها الكامل على جميع هذه المدن الساحلية التي كانت تسيطر عليها منذ نشأتها. ويطلق الباحثون على القرون الخمسة التي عاشتها سلطنة كلوه اصطلاح "عصر إمبراطورية الزنج" على أساس أن سلاطين كلوه استطاعوا بسط سيطرتهم على طول الساحل من مقديشو شمالا حتى سو فالا جنوبا. ويذكر رويش في هذا الصدد أن مدن الساحل بدون استثناء كانت تخضع لسلطة سلاطين كلوه الفعلية طالما يكون السلطان رجلا نشيطا وقويا ولكن إذا ضعف فإن سيادته على المناطق النائية تصبح اسمية[161]. وهذه طبيعة الأحداث في كل عصر وفي كل مكان، حيث أن الأقاليم البعيدة تبدأ دوما في التطلع إلى الاستقلال كلما ضعفت السلطة المركزية في كل مكان . وفيما يلي أسماء زعماء كلوه حسب الوثيقة العربية والحوليات البرتغالية[162] :

الوثيقة العربية	الحوليات البرتغالية	الوثيقة العربية	الحوليات البرتغالية
1- علي بن الحسن	1- علي بن الحسين	27- ساقط	27- سليمان بن سليمان
2- علي بن بسحت	2- علي بوسلقيت	28- الحسين بن سليمان	28- الحسن بن سليمان

158 مالكي ، م. س ، ص56

159 ن.م ، نفس ا لصفحة

160 Freeman, The medievel history, Op. Cit. P150-154

161 Reusch, Op. Cit. p. 155.

162 نقلت أسماء هؤلاء الملوك والسلاطين من مالكي الذي نقل بدوره عن Reusch، وFreeman وقد اطلعت على ماأورده رويش وفريمان للتأكد من صحتها. انظر : مالكي ، م. س، ص36-52

3- داود بن علي	3- داود بن علي	29- محمد بن سليمان	29- محمد العادل
4- خالد بن بكر	4- علي أبو بكر	30- سليمان بن محمد	30- سليمان بن محمد
5- الحسن بن سليمان	5- حسين سليمان	31- اسماعيل بن حسين	31- اسماعيل بن حسن
6- علي بن داود	6- علي بن داود	32- محمد بن سليمان	32-
7- ساقط	7- علي بن داود	33- ساقط	33- الحاكم
8- الحسن بن داود	8- الحسن بن داود	34- أحمد بن سليمان	34- محمود
9- ساقط	9- سليمان الطاغية	35- الحسن بن اسماعيل	35- حسن بن اسماعيل
10- ساقط	10- داود بن سليمان	36- سعيد بن الحسن	36- سعيد بن حسن
11- ساقط	11- سليمان حسن	37- سليمان بن محمد	37-الحاكم
12- ساقط	12- داود بن سليمان 2	38-عبدالله بن الخطيب	38-عبدالله
13- ساقط	13- طالوت بن سليمان	39-عبدالله بن الخطيب	39عبدالله
14- ساقط	14- حسين بن سليمان	40-الوزير حسن	40-حسن
15- ساقط	15- علي بن سليمان	41-صبحت بن الملك	41-شومبو
16- ساقط	16- أبو أو إبن سليمان	42-الحسن بن سليمان	42-حسن
17- ساقط	17- علي داود	43-إبراهيم بن الملك	43-إبراهيم
18- الحسن بن طالوت	18- الحسن بن طالوت	44-محمد كواب	44-ساقط

19- ساقط	19- سليمان بن الحسن2	45-الفضيل بن سليمان	45-الفضيل
20- داود بن سليمان	20- داود بن سليمان 3	46-إبراهيم بن سليمان	47-الأمير إبراهيم
21- الحسن بن سليمان	21- الحسن بن سليمان	47-محمد بن ركن الدين	
22- داود بن سليمان	22- داود بن سليمان 3	48-الحاج حسن بن محمد	
23- ساقط	23- سليمان بن داود	49-محمد مكات بن محمد	
24- الحسين بن سليمان	24- الحسين بن سليمان	50- الأمير إبراهيم	
25- طالوت بن الحسين	25- تالوف بن سليمان	51-الأمير سعيد	
26- ساقط	26- سليمان بن الحسن	52-امحمد بن حسين	

أما بات التي كانت تحتل المرتبة الثالثة من حيث النفوذ فقد كان نظام الحكم فيها وراثيا أيضا، وما تميزت به هذه المدينة عن كلوه هو أن أسرة واحدة احتفظت بالسيادة عليها طوال الزمن الذي كان نجمها صاعدا ، نعني الأسرة النبهانية . ووفقا لاستيجاند فقد استمر الحكم وراثيا في هذه الأسرة بين عام 601 هـ /1204م وعام 1280 هـ /1863م دون انقطاع[163]. مما يظهر بما كانت تتمتع به ربما من قبول شعبي واسع النطاق ، وقد أورد استيجاند جميع أسماء ملوكها[164]. كما أن فرنر يقدم لائحة أسماء مطابقة تقريبا للائحة استيجاند مع انه يختلف عنه بعض الشيء فيما يخص ببداية النبهانيين للحكم ونهاية سيادتهم إذ أن فرنر يرى أن حكمهم بدأ مع بداية عام 600 هـ/1203م وانتهى في حوالي عام 1262 هـ /1845م[165] .

---

[163] Stigand P

[164] Ibid

[165] كيركمان ، م.س ، ص307-308

وتذكر الروايات التاريخية المتعلقة بجزيرة بات أن سليمان بن سليمان بن مظفر النبهاني قد أتى إلى هذه الجزيرة فاستقبله العرب المقيمون بها . ومنذ أن تحول إليه الحكم أرسى دعائم هذه السلطنة الوراثية التي لم تفارق أبناءه حتى زالت عن الوجود.

غير أن هناك وجهة نظر أخرى تشكك في صحة ما يقال في تاريخ بات جملة وتفصيلا وتقول إن بات لم تكن سوى مدينة عادية تخضع لسيادة مقديشو حينا أولسيادة كلوه حينا آخر وإن قصة النبهانيين في شرق افريقيا ليست سوى أسطورة كاذبة. ويعتقد أصحاب هذه النظرية وعلى رأسهم كيركمان أن كل ما يقال في بات إنما هو تحريف لتاريخ مقديشو وسرقة لمخزونها التراثي ، وإن كل الأسماء التي أوردها كل من فرنر واستيجاند إنما هي أسماء لزعماء مقديشو في العصور الوسطى. ومن أهم ما يستند إليه أصحاب هذا الرأي هو تشابه أسماء زعماء بات وبعض الأسماء المنقوشة على العملات التي عثر عليها جرانفيل فريمان في الصومال، والتي يرجح أنها سكت في مقديشو. ويقول كيركمان في هذا الخصوص : « ويقال في تاريخ بات إن السلطان سليمان بن سليمان بن مظفر عندما طرده اليعربي جاء إلى بات عام 601 هـ /1254م ...ويبدو أن التاريخ والاسم هما أبعد ما يكونان عن الحقيقة...كما أن اليعاربة لم يتولوا الإمامة حتى عام 1034 هـ 1624م »[166]. وفي مكان آخر يقول أيضا : « وعدم ترجيح تاريخ مبكر لوصول النبهانيين لباتي تؤكده أيضا أبحاث تشتيك (1967م) حيث لم يجد شيئا يرجع إلى ما قبل القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي »[167].

إلا أن هذه النظرية لا تبدو سليمة باعتبارها تخالف رأي الأغلبية الذي يؤكد أن قادة بات تمتعوا بنفوذ كبير في ساحل شرق افريقيا منذ أواسط القرن الثالث عشر الميلادي . كما أن أصحاب تلك النظرية ينسون أن مقديشو كانت قد دخلت تحت سيادة بات مما لا يجعل مستحيلا سك النقود فيها لصالح بات كمنطقة صناعية للدولة. بل إن وجود مثل هذه النقود في مقديشو قد يكون تأكيدا واضحا لسيادة بات عليها[168].

وما يمكن القول في زعماء بات أنهم ربما لم يتمتعوا بذلك النفوذ الذي تمتع به سلاطين كلوه أو حتى مشائخ مقديشو . كما أن توسعهم على حساب المدن الأخرى لم يدم طويلا في نظر هؤلاء بدليل أن

---

166 ن.م ، ص283

167 كيركمان، م.س ، ص284

168 مالكي، م.س ، ص18 ، حسن أحمد محمود ،م.س ، ص399

مدينتهم لم تكن من المدن التي اعترف البرتغاليون بأهميتها حين نزلوا على الساحل ككلوة أو مقديشو التي استطاعت الصمود أمام هجماتهم ، وفيما يلي أسماء زعماء بات وفقا لاستيغاند وفرنر[169]:

أسماء الملوك حسب اسبيجاند	تاريخ حكمهم	أسماء الملوك حسب فرنر	تاريخ حكمهم
1- سليمان بن سليمان	601 هـ/1204 م	1- سليمان بن سليمان	600هـ/1203م
2- محمد بن سليمان	625هـ /1227 م	2- محمد بن سليمان	625هـ/ 1227م
3- أحمد بن محمد	650 هـ/ 1252م	3- أحمد بن سليمان	650هـ / 1252م
4- محمد بن أحمد	690 هـ / 1291 م	4- محمد بن أحمد	670هـ / 1271م
5- عمر بن محمد	740 هـ / 1339 م	5- عمر بن محمد	732هـ / 1331م
6- محمد بن عمر	795 هـ / 1392 م	6- محمد بن عمر	749هـ / 1248م
7- أبو بكر بن عمر	825 هـ / 1422 م	7- أحمد بن عمر	797هـ / 1394م
8- بوانا مكو	855هـ/1441م	8- أبو بكر بن محمد	840هـ / 1436م
9-محمد بن بوانا مكو	903هـ/1497م	9- محمد بن أبو بكر	875هـ / 1470م
10- أبوبكر بن بوانامكو	945هـ / 1538 م	10- أبو بكر بن محمد	900هـ / 1494م
11- بوانامكو بن بوبكر	995هـ / 1587م	11- بوانا مكو بن محمد	945هـ / 1538م
12- أحمد بن أبو بكر	1010 هـ/ 1601 م	12- محمد بن أبو بكر	975هـ / 1565م
13- محمد بن أبو بكر	1017هـ / 1608م	13- أبو بكر بن مكو	1002هـ / 1593م
14- أبو بكر بن بوانامكو	1018هـ / 1609م	14- أبو بكر بن محمد	1041هـ / 1631م

[169] أخذت أسماء هؤلاء الملوك من كتاب كيركمان الذي نقل عن Stigand و Warner ، وقد قرأت كتاب استيجاند للتأكد من صحة ما نقل عنه ولكني لم أعثر على كتاب ورنر ، انظر : كيركمان ، م.س ، ص305-308

15- محمد بن بوبكر	1040هـ / 1630م	15- بوانا مكو بن محمد	1061هـ / 1650م
16- أبو بكر بواناتامو	1060هـ / 1649م	16- أبو بكر بن بوانا	1100هـ /1688م
17- بوانامكووبن أبوبكر	1110هـ /1688 م	17- أحمد بن أبو بكر	1103هـ / 1691م
18- بوانا تاموموتيتي	1125هـ / 1714م	18- أبو بكر بوانا تامو	1111هـ / 1700م
19- بوانا باكارى بوانا	1135هـ / 1722م	19- أحمد بن أبو بكر	
20- أحمد بن بوانا تامو	1150هـ / 1737م	20- بوانا تامو مقوتو	1160هـ 1747م
21- بوانا خديجة	1177هـ / 1763م	21- مونا خديجة	1176هـ / 1762م
22- فومو لوتي	1187هـ / 1773م	22- بوانا مكوو	1187هـ / 1773م
23- فوموماري	1190هـ / 1776م	23- محمد بن أبو بكر	1191هـ / 1777م
24- أحمد بن شيخ	1224هـ / 1809م	24- أحمد بن الشيخ	1224هـ / 1809م
25- فومو لوتي كيبونجا	1229هـ / 1819م	25- فومو لوتي	1230هـ / 814 م
26- شيخ وافومومادى	1233هـ / 1817م	26- بوانا شيخ	1236 هـ /1820م
27- بوانا وزيري	1236هـ / 1820م	27- بوانا شيخ وافومو	1236 هـ /820 م
28- فومو باكارى شيخ	1245هـ / 1829م	28- أحمد	1237 هـ /1821م
29-وانا مادى بن شيخ	1259هـ/ 1843م	29- وزيري	1249 هـ /1833م

30- أحمد سيمبا	1280هـ /1863م	31-فومو باكاري واشيخ	1250 هـ /1834م
		32- أحمد سيمبا	1262هـ /1845م

وهكذا يمكن القول إن هذه المدن الثلاثة استطاعت أن تتناوب على السيطرة على ساحل شرق إفريقيا لفترة من الزمن . غير أن ما تجدر الإشارة إليه أن الحكام المسلمين الذين تعاقبوا على هذه المنطقة خلال تلك الفترة لم يحملوا ألقاب الخلافة الإسلامية وشاراتها المختلفة مثل لقب خليفة المسلمين أو أمير المؤمنين أو لقب الإمام وغيرها من الألقاب التي حملها الخلفاء الراشدون و الأمويون والعباسيون وإنما اكتفوا بحمل ألقاب مثل "الشيخ" - وهو اللقب الذي كان سائدا في الجزيرة العربية قبل الإسلام - وحمله زعماء مشيخة مقديشو و"السلطان" الذي حمله أمراء سلطنة الزنج الإسلامية وكذلك الزعماء النبهانيون في جزيرة بات.

وبجانب منصب السلطان والشيخ فقد وجدت في شرق افريقيا الساحلي مناصب أخرى رفيعة كالوزير الذي يرأس الأمراء والأعيان وهو يلي السلطان مباشرة من حيث الأهمية في سلطنة الزنج الإسلامية بينما يلي القاضي الشيخ في مقديشو من حيث المنصب والمكانة. وكثيرا ما يتولى القاضي بنفسه وظيفة الحسبة التي انتشرت انتشارا واسعا على طول هذا الساحل.

وكان القاضي يختار من العلماء والزّهاد الذين يحتلون مرتبة سامية في المجتمع وقد أشار ابن بطوطة إلى نظم القضاء في مقديشو حيث ذكر أن الفصل في القضايا المدنية تنظر فيه هيئة مكونة من القاضي والوزراء وكاتب السر وأربعة من كبار الأمراء وذلك للفصل بين الناس والنظر في الشكاوى[170]. أما المظالم فكان البت فيها من شأن السلاطين أو الشيوخ لكونها تحتاج إلى علو يد وعظيم هيبة تقمع الظالم من الخصمين وتزجر المعتدي[171]. ويقول ابن بطوطة في هذا الصدد « ويقعد القاضي والوزراء وكاتب السر وأربعة من كبار الأمراء للفصل بين الناس أهل الشكايا ، فما كان متعلقا بالأحكام الشرعية حكم فيه القاضي وما كان من سوى ذلك حكم فيه أهل الشورى وهم الوزراء الأمراء وما كان مفتقرا إلى مشاورة كتبوا إليه – الشيخ- فيه فيخرج لهم الجواب من حينه على ظهر البطاقة بما يقتضيه نظره وتلك عادتهم دائما »[172].

[170] بن بطوطة ، م. س، ص282

[171] ابن خلدون ،العلامة عبد الرحمن بن محمد ، مقدمة بن خلدون ، بيروت ، دار الجيل (د.ت) ، ص 571

[172] ابن بطوطة ، م.س ، ص282-283

وفي كتب الرحالة العرب عموما إشادة بما اشتهر به القضاة في هذه البلاد من دقة وتبحر في العلم وفهم للقوانين التي يطبقونها [173]. وكان من شروط القضاء التقوى والورع والتضلع في الفقه الإسلامي والإلمام بنصوص المذهب الشافعي الذي كان سائدا في المنطقة[174].

وفيما يتعلق بالنظام المالي فقد اهتم الحكام في ساحل شرق افريقيا بتنظيمه وفقا للشريعة الإسلامية فكانت الزكاة والجزية والغنيمة أهم موارد المنطقة المالية ، فالزكاة كانت متنوعة المصادر أما الغنيمة فكانت عادة من الذهب والعاج مثلها في ذلك الجزية . وكان حكام الساحل يكثرون من الإنفاق في سبيل الله إلى جانب ما كانوا يقومون به من دفع رواتب الموظفين، مما يوحي بأن المال كان وفيرا في المنطقة.

أما عن النظام الحربي فإن الجيش في ساحل شرق إفريقيا كان يتكون من عناصر أهمها العرب والفرس الذين كان يدفعهم الشعور بالواجب نحو الحفاظ على ممالكهم ونظمهم التي نقلوها من بلادهم الأصلية ، هذا إلى جانب العنصر السواحلي والرقيق[175]. وبالنظر إلى أن الخيول كانت معدومة لديهم فإن أغلب الجيوش كان من المشاة وكانت أسلحتهم من الرماح والسيوف وكان هناك رماة السهام والنشاب [176]. وكان السلطان الشيخ يقود الجيش بنفسه في أغلب الأحوال . وقد حدثنا ابن بطوطة بأن السلطان أبا المواهب كان كثير الغزو لأرض الزنج[177].

هذا وتجدر الإشارة إلى أنه ليس هناك في المصادر المتداولة ما يفيد وجود قوة عسكرية كبيرة في ساحل شرق إفريقيا في تلك الفترة وأن القليل الذي وجد هناك كان لحماية المدن من القبائل الإفريقية الضعيفة أصلا . وخير دليل على ذلك وقوع الساحل في قبضة البرتغاليين بكل سهولة في فترة وجيزة من القرن السادس عشر .

---

[173] Zindiq, Op. Cit. . P18

[174] ابن بطوطة ، م.س، ص189

[175] العراقي السر سيد أحمد ، "أرض الزنج الإسلامية "، *مجلة كلية الآداب* ، جامعة أم درمان الإسلامية ، العدد الثاني 1984م ص 30

[176] السر سيد أحمد ، أرض الزنج ،م.س ، ص 30

[177] ابن بطوطة ، م.س ،ص284

المبحث الثالث: نهاية المدن في أواخر العصور الوسطى وبدايات العصر الحديث

لقد دفعت سلطنات وممالك ساحل شرق إفريقيا ثمن إهمالها للجانب العسكري ، وذلك عن طريق انهيارها فجأة على أيدي البرتغاليين – كما قلنا – لتصبح أثرا بعدعين في فترة وجيزة .

ولقد وصل البرتغاليون إلى المنطقة في أواخر القرن الخامس عشر ، وكانت سفالا أول مدينة إسلامية شاهدوها في هذا الساحل ، وقد أدهشهم جمالها ووفرة خيراتها وثرؤها . وقد تلقوا فيها معاملة حسنة لدى مواطنيها ، كما رحب بهم حاكم المدينة التابع لسلطان كلوه ظنا منه أن أسطولهم يتبع العثمانيين أو مسلمي الغرب[178] .

وقد تظاهر البرتغاليون أثناء وجودهم بسفالا بأنهم أتوا إلى المنطقة بدافع التجارة ، فتفقدوا كافة مرافق الخدمات وجميع أنواع السلع التي كانت تصل إلى الميناء من الشمال ، وهو ما أثار نهمنهم الشديد ورغبتهم في معرفة مصدر هذه السلع . وبعد فترة قصيرة اكتشف أهالي موزمبيق أمر البرتغاليين إثر ملاحظات سجلها بعض المواطنين عن الأحباش الذين كانوا يعملون في خدمة التجار العرب في الميناء والذين كانوا ينحنون أمام الرموز المسيحية التي كانت تحملها سفن البرتغاليين ، دفع هذا الأمر البرتغاليين إلى مغادرة المدينة نحو الشمال[179] .

وما أن وصلوا إلى مالندى في نهاية المطاف حتى رحب بهم ملكها ترحابا شديدا حيث رأى فيهم حلفا له ضد أعدائه ، لاسيما أنه كان في حالة عداء مع ممباسا . وقد عقدت اتفاقية بين القائد البرتغالي دي جاما وملك مالندى على الفور ، وأصبحت مالندى بمقتضى هذه الاتفاقية تابعة للتاج البرتغالي ، على أن يناصرها البرتغاليون ضد أعدائها[180] .

وقد كان ارتماء مالندى في أحضان البرتغاليين نقطة تحول كبرى في تاريخ ساحل شرق إفريقيا ، إذ بدأ البرتغاليون يخططون للاستيلاء على المنطقة بأسرها ، بعد أن اكتشفوا الانقسامات الداخلية التي تعاني منها المدن الساحلية وضعف نفوذ كلوه عليها بسبب المنازعات حول العرش واستبداد الأمراء والوزراء فيها . وقد اكتشفوا ذلك عن طريق الجوسسة التي كانوا يتقنونها .

ويذكر في هذا الخصوص أن البرتغاليين بدأوا في أول خطتهم فتح مدينة كلوه – أقوى مدن الساحل- بطريقة سلمية ، فدبر القائد البرتغالي الفاريز كبرال حيلة تمكنه من الدخول إليها حيث ادعى أنه

---

[178] مالكي ،م.س، ص98 ، الحويري ، م.س ، ص74-75

[179] الحويري ، ن.م، ص80-81

[180] Marsh & Kingsnorth, *Op. Cit.* P. 26-27

يحمل رسالة من الملك البرتغالي إلى سلطان كلوه . غير أن هذه الحيلة لم تنجح فدبر أخرى بإنزال أحد أمهر أعوانه إلى المدينة بعد أن طلب السماح لأنطونيو فرناندو[181] بالهبوط إلى المدينة بدعوى أنه مريض . وهكذا بينما كان ينتظر التقارير الاستخباراتية عن موفده إلى كلوه ، اتجه إلى مالندى ليكافئ شيخها بهدايا الملك البرتغالي عمانويل على ولائه للبرتغاليين[182] .

ومن هنا بدأ صراع البقاء بين سكان ساحل شرق إفريقيا والبرتغاليين الذين كثفوا جهودهم لإسقاط المدن الساحلية بدءا من كلوه ، ويبدو أن كلوه شعرت بالخطر الذي أصبح يتهددها فأبدت مرونة في موقفها حيث قبل سلطانها مقابلة دي جاما تجنبا لويلات الحرب ، وخرج إليه السلطان ليقابله على قاربه في الميناء وعرض عليه دي جاما أن يقبل حكم الملك البرتغالي فرفض الأمير ذلك ولكن دي جاما أخبره بأنه سيظل سجينا على السفينة وأنه سيحرق المدينة مما اضطر الأمير إلى الموافقة مع دفع ضريبة سنوية للبرتغال. وقبل أن يبحر دي جاما من المدينة ترك علم البرتغال مرفوعا على قصر السلطان دلالة على أن كلوه فقدت استقلالها ،كان ذلك منذ في 19 يوليو من عام 1502م[183] . وقد كان سقوط هذه المدينة بداية لخضوع أغلب المدن الساحلية التي كانت تنظر إلى كلوه نظرة تبجيل إذ لم يعد أمامها سوى الاستسلام للبرتغاليين بعد سقوط المملكة الأم في أيديهم.

غير أن أمير كلوه لم يكن ليعترف بتبعيته للملك البرتغالي لو لم يؤخذ على حين غفلة باعتبار أن مدينته ما تزال قوية بدرجة كافية، وهو ما اتضح لاحقا ، فقد سارعت بالتمرد ورفضت دفع الضريبة بعد رحيل دي جاما كما شرعت في بناء حصن جديد قرب الميناء لمواجهة خطر البرتغاليين وقد أدى هذا الأمر إلى فتح باب عصيان شامل عن دفع الضرائب للبرتغاليين في كافة مدن الساحل هذا ، باستثناء مالندى التي كانت تعتبر صديقة للبرتغاليين[184] .

ويعتقد المؤرخون أن التمرد على البرتغاليين شكل نقطة تحول حاسمة في تاريخ المنطقة إذ أن الملك البرتغالي لم يستسغ هذا الأمر فأصدر أوامره إلى قادة الجيوش بهدف إخضاع هذه المدن عنوة ومعاملة المتمردين فيها بقسوة شديدة وتزويدها بالقلاع والحصون وترك حاميات بها لفرض السيطرة عليها من ناحية وحراسة الطرق المؤدية إلى الهند من ناحية أخرى[185] .

[181] أنطونيو فرناندو هو أحد القواد البرتغاليين الذين بعثهم الملك عمانويل إلى شرق إفريقيا والهند

[182] ترمنجهام ، م.س. ص13-14 ،مالكي ، م.س. ص99 ، جمال زكريا قاسم ،الأصول التاريخية، م.س. ص93

[183] Reusch, *Op. Cit.* p230

[184] Reusch, *Op. Cit.*p231-232

[185] Reusch,*Op. Cit.* p.227

ولقد وصل فرانسيسكو دالميدا إلى شرق إفريقيا في أواخر جويليه من عام 1505 ، وشرع في مهاجمة سوفالا وترويع سكانها ومن ثم أبحر إلى كلوه في 22 جويليه من العام نفسه وبادرها بإطلاق المدافع وإنزال الجنود. وما أن اقترب جيشه من قصر الأمير إبراهيم حتى هرب هذا الأخير من أحد الأبواب الخلفية إلى مناطق الغابات وتبعه كثير من الناس يقدر عددهم بنحو 30 ألف شخصا ، فدخل البرتغاليون إلى البيوت الخالية ، ونهبوا وسلبوا وخربوا ، كما أحرقوا جانبا كبيرا من المدينة[186]. وفي الأيام التالية بدأ المواطنون يعودون إلى بلدهم المخرب ويستسلمون إلى الأمر الواقع، وقد عين دالميدا محمد الكوفي سلطانا على المدينة وتوّجه بتاج من الذهب كما عين محمد ميقاتي وليا للعهد. وقام ببناء حصن حجري ترك به حامية عسكرية تتولى شؤون الحراسة على المدينة وتستلم الضريبة السنوية المقدرة بألفي مثقال من الذهب[187].

وبعد النجاح الذي حققه دالميدا في السيطرة على سوفالا وكلوه اتجه نحو ممباسا في الثامن من أوت من نفس هذا العام وطلب من حاكمها شاتاب بن ماشام الذي كان أميرا من قبل سلطان كلوه الاستسلام بدون مقاومة . غير أن الأمير رفض ذلك فشن دالميدا هجوما كاسحا على المدينة ودافع سكانها عنها بشجاعة لمدة يومين، ولكن تفوق البرتغاليين في السلاح وبخاصة المدافع جعلهم ينجحون في النـــزول إلى المدينة في اليوم الثالث بعد أن قتلوا أكثر من 1512شخصا كانوا من خيرة رجالها ، وتصدعت معظم منازلها وتعرضت للسلب والنهب والخراب كما أحرقوا جانبا كبيرا منها على غرار كلوه وتركوا بها حامية عسكرية تؤكد تبعية المدينة للملك البرتغالي . ومن هناك اتجهوا إلى مالندى[188]. وينقل الحويري عن دافيدسون قصة شاهد عيان يصف تخريب دالميدا للمدينة قائلا إنه : « أعطى أوامره لجنده بنهب المدينة ونقل ما تقع عليه أيديهم إلى السفن ووعد كل جندي بالحصول على جزء مما ينهبه بما في ذلك الذهب والجواهر[189] ».الأمر الذي جعل الجنود يمعنون في نهب المدينة وثرواتها . وقد وصف سلطان المدينة المشهد بقوله : « إن السواحليين والعرب في ممباسا عند ما عادوا إلى مدينتهم لم يجدوا فيها أثرا للحياة ، فقد قضى البرتغاليون على كل شيء[190] ».

---

[186] Reusch, *Op. Cit.* , p. 231

[187] ترمنجهام، م.س ، ص14-15 ، Reusch, *Op. Cit.* p231-232 , Gray, *Op. Cit* p.24

[188] Reusch, *Op. Cit.*.p. 232

[189] حويري،م.س، ص93

[190] ن.م .

وقد انتهت مهمة دالميدا في أوائل مارس من عام 1506م حين حل محله القائد تريستاو داكنها (Tristao Da Cunha) الذي وصل إلى المنطقة في 6 مارس من نفس هذا العام . وكانت المهام الموكلة إليه مواصلة الغزو نحو الشمال بعد أن أخضع دالميدا جميع المدن الساحلية الواقعة إلى الشمال من مالندى[191].

بادر داكنها بالإبحار إلى مدينة لامو بهدف الاستيلاء عليها غير أن أهلها تعهدوا بدفع جزية سنوية خشية أن يلحق بهم من الدمار ما لحق بغيرهم من أهالي الساحل فتوجه إلى براوي التي كانت تنافس ممباسا من حيث الغنى[192][193]. وهناك وقعت اشتباكات عنيفة انتهت بحسم البرتغاليين للمعركة لصالحهم. وكما جرت العادة فقد دمروا كل شيء في المدينة كما استخدموا مع الأهالي أقصى أساليب البطش والتعذيب مما جعل السكان ينسحبون إلى التلال المجاورة للمدينة[194].

وأخيرا أبحر داكنها إلى مقديشو أخر المدن الساحلية في الشمال. وكانت أخبار الجرائم الفظيعة التي ارتكبها البرتغاليون في حق أهالي المدن الجنوبية من الساحل قد وصلت إلى سكان مقديشو فقرروا عدم الاستسلام لهم وتمكنوا من الوقوف في وجههم ودحرهم من مدينتهم حتى إنها المدينة الوحيدة التي احتفظت باستقلالها طوال سيطرة البرتغاليين على مناطق ساحل شرق إفريقيا ، وذلك لمناعتها وشدة بأس أهلها[195].

وهكذا قضى البرتغاليون على الفترة الذهبية لمدن ساحل شرق إفريقيا لتسقط تحت وطأة الاستعمار منذ ذلك الحين . بهذا الدمار انتهى تاريخ سلطانات عظمى في ساحل شرق إفريقيا كامبراطورية الزنج التي قال رويش عنها تأكيدا لعظمتها « ذهبت الإمبراطورة العظمى ، والأبناء العظام من بيتها الملكي ناموا

[191] الحويري ، م. س، ص94

[192] وكانت براوى على غرار ممباسا تمتهن النسيج التي اشتهر أهلها حتى اليوم كما هو معروف في الصومال

[193] Zindiiq ,Op.Cit. p. 103

[194] Ibid , P. 123

[195] Oliver & Mathew, Op. Cit. , p134 , Ruesch,p. 155

نومتهم الأخيرة في تربتهم الحارة في إفريقيا الاستوائية ، و لم يبق إلا أطلال منشأتهم الضخمة تخبر الأعقاب بقصة أمجادهم ، فكثير من المخلفات والأغاني تظهر لنا مجد أعمالهم وفخر منجزاتهم [196] » . وأهم ما يمكن استخلاصه من هذه الأحداث أن سكان ساحل شرق إفريقيا عرفوا كيف يبنون حضارة مزدهرة ولكنهم لم ينتبهوا إلى الأطماع المحيطة بهم بما أنهم لم ينشؤوا جيشا جرارا يدافع عنهم ويحمي مكتسباتهم .

---

[196] Reusch , Op.Cit., p215

الباب الثاني:
العرب والفرس والحياة الثقافية والدينية في المنطقة

تمهيد :

ساعد الازدهار التجاري الذي ساد في إقليم ساحل شرق إفريقيا خلال العصور الوسطى على قيام نهضة علمية وثقافية تغلغلت في أعماق صنوف الحياة الاجتماعية. وقد انعكس ذلك على الإنتاج العقلي والمادي الذي تمخضت عنه حضارة ساحل شرق إفريقيا الإسلامية، تلك الحضارة التي أسهم في بنائها العرب والفرس والهنود وغيرهم من الأمم الأخرى، بالإضافة إلى القبائل الإفريقية من البانتو والجالا والصوماليين والسواحليين والقبائل الأخرى المستقرة هناك.

وإذا كنا قد أشرنا إلى أن منطقة ساحل شرق إفريقيا كانت منتهى لهجرات شعوب متنوعة على مدى عصور متلاحقة فإن ذلك يعني انتقال عادات هذه الشعوب وتقاليدها وثقافاتها المتباينة إلى المنطقة. ولا شك أن الهجرات العربية والفارسية كانت أهم الهجرات التي شهدها الساحل وأبرزها تأثيرا على المستوى السياسي – كما رأينا في الباب الأول – وعلى المستوى الثقافي والديني.

ونخصص هذا الباب لمعالجة هذا الجانب ، حيث نتناول في الفصل الأول منه مظاهر الحياة الثقافية والدينية التي سادت في المنطقة أثناء السيادة العربية والفارسية على الساحل. كما نبين في الفصل الثاني والأخير أثر اللغة العربية على الصومالية التي تسود الجزء الشمالي من الساحل، وتبلور اللغة السواحلية من تلاقح العربية مع اللغات البانتوية في الأجزاء الجنوبية منه أي كينيا وتنزانيا وموزمبيق .

الفصل الأول: الحياة الثقافية والدينية في المنطقة

منذ أن قدم العرب والفرس إلى ساحل شرق إفريقيا ارتبط تاريخه الثقافي والديني بهم كما أن الإسلام أصبح ديانة جزء كبير من شعوب ساحل شرق إفريقيا وتعتز شعوب هذه المنطقة بتلك الديانة إذ أن العادات والتقاليد غير الإسلامية اختفت لدى هذه الشعوب.

ولعل السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو كيف انتشر الإسلام في المنطقة ؟ وما هي العوامل التي ساعدت على انتشاره فيها ؟ وكذلك ما هي الوسائل التي اعتمد عليها في نشره ؟

المبحث الأول: انتشار الإسلام في ساحل شرق إفريقيا

لقد ظهر الإسلام في مكة المكرمة في القرن السابع الميلادي ولقي معارضة شديدة حيث تعرض معتنقوه إلى مضايقات جمة مما أدى ببعضهم إلى الفرار نحو الحبشة، وهو ما يعني أن شرق إفريقيا عرف الإسلام قبل المدينة المنورة مهجر النبي (ص) بعشر سنوات. وقد ورد في حوليات مقديشو أن جعفر بن أبي طالب أسس مركزا للدعوة الإسلامية في الصومال بمساعدة الجاليات العربية المستوطنة هناك حينما جاء إلى الحبشة مهاجرا[197]. وحسب كتاب الزنوج الذي نقل منه كل من أوليفر و ماتيو فإن الإسلام انتشر في هذا الساحل أيام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب حين اعتنق العرب المقيمون في طول هذا الساحل الإسلام[198].

وعلى الرغم من أنه لا تثبت لدينا صحة هذا الخبر من عدمه فإن المؤرخين يؤكدون أن ساحل شرق إفريقيا قد عرف الإسلام في وقت مبكر من تاريخه ، وذلك لاستقباله أعدادا غفيرة من المهاجرين المسلمين منذ بزوغ فجر الإسلام في الجزيرة العربية[199]. وقد تحدثنا فيما مضى عن هذه الهجرة من حيث التسلسل التاريخي إلا أننا نحاول هنا الوقوف على ما ترتب عليها من انتشار للإسلام و بالتالي الثقافة العربية الإسلامية .

وقد قسم الباحثون مراحل انتشار الإسلام في ساحل شرق إفريقيا إلى ثلاثة فترات رئيسية : تبدأ الأول منها بوصول أولى طلائع الهجرات العربية إلى شرق إفريقيا بعد الإسلام منذ القرن السابع الميلادي وتمتد حتى بروز المدن العربية الإسلامية المزدهرة واستقرار الإسلام فيها. ومن هنا تبدأ المرحلة الثانية التي تمتد

---

[197] حمد ي السيد سالم ، م.س ، ص348 . العراقي،الإسلام ومراكز الثقافة ، م.س ، ص166

[198] Oliver & Mathew, Op. Cit. , P.102

[199] مركز دراسات الوحدة العربية ، العرب وإفريقيا ،بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية بالتعاون مع المنتدى الفكري العربي ، بيروت ،1987م ،ط3 ، ص32 ،جمال زكريا قاسم ، م.س، ص284-286 ، أمين محمد ، م.س ، ص61

حتى وصول البرتغاليين إلى المنطقة حيث بداية المرحلة الثالثة والأخيرة من تاريخ انتشار الإسلام في ساحل شرق إفريقيا[200].

ولقد اختلفت وسائل انتشار الإسلام في هذه المراحل من مرحلة إلى أخرى كما اختلفت الطبقات الاجتماعية التي انتشر فيها أيضا . ففي المرحلة الأولى اعتنقت الإسلام العناصر العربية التي استوطنت في المراكز التجارية قبل الإسلام ، وكانت هذه العناصر على صلة وثيقة بالجزيرة العربية عبر التجارة بحيث كانت تدرك ما أحدثه الإسلام هناك من تطور على جميع الأصعدة مما دفعهم إلى اعتناقه فورا. كما أن المهجرين ربما كانوا يعملون وفقا لقوله تعالى " وأنذر عشيرتك الأقربين[201] "بحيث خصوا الدعوة بهؤلاء العرب فقط، وقد كان يتنامى عدد المسلمين في الساحل بسبب تدفق المهاجرين المسلمين من الجزيرة العربية إليه وليس بفضل دخول المواطنين فيه إلى أن شكل المسلمون الأغلبية في المراكز التجارية التي تحولت فيما بعد إلى مدن وسلطنات زاهرة ، وتعرف هذه المرحلة بدور التكوين.

أما المرحلة الثانية فتعرف بدور الازدهار وهي المرحلة الممتدة من منتصف القرن الثالث عشر حين نمت المدن التجارية المتناثرة على طول الساحل وازدادت ثراء وغناء وازداد الإسلام بين أهلها رسوخا وتحولت إلى سلطنات إسلامية واضحة المعالم[202].

وفي هذه المرحلة بدأت تظهر طريقة أخرى للدعوة إلى الإسلام ، وكانت طريقة سلبية جدا ، حيث كانت تثير الكراهية في نفوس المواطنين الأفارقة ضد العرب والمسلمين هناك كما كانت بعيدة كل البعد عن القيم الإسلامية السمحة التي جاء بها الإسلام. وكانت هذه الطريقة تعتمد على اختطاف الأفراد من القبائل الإفريقية لاستعبادهم أحيانا في المناطق الساحلية التي تقيم فيها الأقليات العربية والفارسية ولبيعهم في الجزيرة العربية في أغلب الأحايين ، حيث كانوا يستخدمون في المنازل وفي الأعمال الشاقة التي تتطلب القوة الجسدية بصفة خاصة. وكان القسم الأكبر من زنوج شرق إفريقيا يعملون على شكل جماعات في منطقة البصرة في أراضي كبار الملاك وكان يقع عليهم عبء تجفيف المستنقعات وإصلاح الأراضي الزراعية واستخراج الدبس من التمر إلى غير ذلك من أشق الأعمال. وهو ما دفع بهم إلى القيام

---

[200] ترمنجهام.م.س ، ص33-35

[201] سورة الشعراء ، الآية 213 ، القرءان الكريم ، مصحف المدينة المنورة ، برواية ورش عن نافع المدني.مجمع الخادم الحرمين ص337

[202] حسن أحمد محمود.م.س ، ص400

بثورة الزنج المعروفة ضد الدولة العباسية ،وقد تزعم هذه الثورة التي دامت أكثر من أربعة عشر سنة علي بن محمد في البصرة سنة 255هـــ/ 867م [203].

ويبدو أن العرب والمسلمين الذين كانوا يعملون في تجارة العبيد كانوا يتعمدون عدم إبلاغ الدعوة إلى القبائل الإفريقية هناك . وذلك ببساطة لأنه لم تكن في مصلحة جلاب الرقيق أن ينتشر الإسلام بين هذه القبائل التي يأخذون منها ضحاياهم ، لأنها لو تحولت إلى الإسلام لتآخت معهم في الدين واصبح من الصعب الإغارة عليهم واسترقاقهم[204].

ومهما يكن من أمر فإن هذه الطريقة رغم سيئاتها إلا أنها كانت تؤدي إلى نتائج إيجابية في بعض الأحيان ، ويروي توماس أرنولد قصة غريبة تعكس مدى القسوة والأنانية التي كان يتصف بها العرب والمسلمون الذين كانوا ينشطون في ميدان التجارة بين شرق إفريقيا والخليج العربي آنئذ . وهو يقول في هذا الصدد : « وهناك قصة غريبة محفوظة في مجموع رحلات قديمة، لا يبعد أنها كتبت في أوائل القرن العاشر تصور لنا الإسلام بأنه دخل في إحدى هذه القبائل على يد ملكها نفسه. ذلك أن سفينة تجارية عربية أقصتها الريح عن طريقها سنة 922م وأرستها إلى بلاد الزنج الذين يأكلون لحم البشر حيث توقع البحارة موتا محققا ولكن حدث لهم عكس ما توقعوه إذ تلقاهم الملك لقاء رحيما ورحب بهم ترحيبا كريما عدة شهور باعوا خلالها بضاعتهم بشروط مربحة ولكن التجار ردوا عليه كرمه بخيانة شائنة فأوثقوه هو وحاشيته حين ركبوا السفينة يودعونهم وحملوهم معهم إلى عمان رقيقا وبعد سنوات قليلة طوحت الريح بهؤلاء أنفسهم إلى نفس الميناء فعرفهم الأهالي وطوقوهم بقواربهم فسلموا أنفسهم متوقعين الموت في هذه المرة فصلى كل منهم على آخر صلاة الموت ثم أخذوا إلى حضرة الملك حيث تبينوا في دهشة وعجب أنه الملك نفسه الذي عاملوه معاملة جد مخزية قبل ذلك ببضع سنين وبدلا من أن يقتص منهم بأي نوع من القصاص لمسلكهم الغادر أبقى على حياتهم وتركهم يبيعون بضاعتهم ولكنه رفض الهدية الثمينة التي قدموها إليه رفضا ينطوي على التقريع. وقبل أن يبرحوا تقدم واحد منهم في جرأة إلى الملك وسأله أن يقص قصة فراره. فوصف لهم كيف أخذ رقيقا إلى البصرة ومنها إلى بغداد حيث أسلم وتفقه في الدين ، فلما هرب من مولاه لحق بقافلة من الحجاج كانت ذاهبة إلى مكة ، وبعد أن أدى مناسك الحج وصل إلى

---

[203] الطبري ، م.س ،ج9، ص431، حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام م.س، ج4 ، ص587 ، أحمد علي ، ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد ، بيروت 1960 ، ص 78–80 ، الحويري ، م.س ، ص58–59 ، جمال زكريا قاسم ، استقرار العرب م.س، ص283–284

[204] أرنولد ،م.س، ص382

القاهرة وصعد في النيل صوب بلاده ، فوصل إليها أخيرا بعد أن تجشم كثيرا من الأخطار ووقع في الرق أكثر من مرة. ولما عاد إلى مملكته من جديد علم قومه دين الإسلام [205] ».

وإذا أمعنا النظر في هذه القصة نكتشف أن النخاسين العرب في شرق إفريقيا لم تكن تهمهم القيم والأخلاق الإسلامية بقدر ما كان الربح والمال هدفهم الأول . وإن القول بأن الإسلام انتشر في إفريقيا السوداء عن طريق التجارة[206] – كما يروق لبعض الباحثين العرب القول به- دون ذكر أي نوع من التجارة تلك، يخفي حقائق مرة كهذه . وبصرف النظر عن النتائج الإيجابية التي قد تنجر أحيانا عن اختطاف السود بهذه الطريقة باعتناقهم الإسلام وتأثير بعضهم على عشائرهم أو قبائلهم وبالتالي تحويلها إلى الإسلام فإن ساحل شرق إفريقيا لم يشهد نشاطا دعويا يذكر في هذه الفترة و لم يبذل العرب والمسلمون أية جهود في نشر المعارف الإسلامية بين القبائل الإفريقية هناك وإنما كانت جهودهم مقصورة فقط على الحدود الساحلية في أول الأمر [207].

ويؤكد أرنولد في هذا الصدد أن العرب لم يكونوا يوما دعاة إسلام في هذه البلاد و لم تكن هناك بعثات تدعو إليه وإنما أقنع العمانيون عبيدهم بأن يسيروا وفق الشعائر الدينية بينما تركوا القبائل يظلون سعداء في جهلهم المطبق[208].

وهكذا يمكن القول إن العرب في شرق إفريقيا استسلموا لشهواتهم سعيا وراء التجارة وصيد الرقيق ، فكان الفارق واضحا بين نشاطهم وبين ما أظهره إخوانهم في الدين حيال نشر الدعوة في أجزاء أخرى من القارة السمراء ، كشمال إفريقيا.

أما المرحلة الثالثة من تاريخ انتشار الإسلام في ساحل شرق إفريقيا فتبدأ من أوائل القرن الخامس عشر حين بدأ البرتغاليون يعيثون فسادا في المدن العربية الإسلامية في الساحل مما دفع المسلمين إلى الفرار إلى الداخل والاحتماء بين القبائل التي كانوا ينهبون أفرادها في السابق . ولعل المثل القائل " مصيبة قوم عند قوم فوائد" ينطبق على هؤلاء بحيث اعتنقت القبائل الإفريقية الإسلام وتحضرت بفضل هذا الاتصال ، ويقول الدكتور جمال زكريا قاسم في معرض حديثه عن العلاقات العربية الإفريقية « أن أعمال العنف التي قام بها البرتغاليون في سواحل شرق إفريقيا دفعت العرب والسواحليين إلى الفرار من مدن الساحل لاجئين إلى

[205] أرنولد، .م.س، ص 379-380

[206] حسن إبراهيم حسن ، انتشار الإسلام والعربة ، م.س ، ص13و41

[207] حسن إبراهيم حسن ، انتشار الإسلام والعروبة ، م.س، ص13 ، الحويري .م.س، ص42

[208] أرنولد،م.س، ص380-381

الداخل ومن ثم كانوا سببا في نقل المؤثرات العربية وزيادة الاختلاط والتفاعل مع القبائل الداخلية[209] »، غير أنه بعد تدهور النفوذ البرتغالي في هذه المنطقة توقفت عجلة الدعوة من جديد إلى أن جاء القرن العشرون بتوسعه الاستعماري الذي كانت له نتائج إيجابية في انتشار الإسلام هناك [210]، حيث خرج الإسلام من المناطق الساحلية إلى البوادي وداخل القارة حتى أواسط إفريقيا الاستوائية ، ويؤكد أرنولد ذلك بقوله « ولما مُنعت تجارة الرقيق لانتشار الحكم الأوروبي في إفريقيا الاستوائية والشرقية تلا ذلك توسع كبير في نشاط الدعوة الإسلامية [211] » . وكأن العرب والمسلمين أظهروا الوجه الحقيقي للإسلام بعد ما أعيت السبل الأخرى في استغلال القبائل التي كان شعورها نحو المسلمين شعورا عدائيا ينم عن خوف وكراهية شديدين باعتبارهم تجار رقيق خاصة وأن الدوائر المنظمة التي أنشأها الاستعمار في المنطقة كان جل موظفيها من المسلمين في أول الأمر، مما مكنهم من أن يدخلوا في الإسلام بعض الأفراد والعشائر[212]. ولكن ذلك كان متأخرا بعض الشيء إذ نرى اليوم بلادا ككينيا وتنزانيا وموزمبيق يدين أغلب سكانها بالمسيحية مع أن الإسلام أسبق إليها بقرون طويلة. ولو لم يمارس العرب والمسلمون هذه الممارسات المشينة ضد القبائل الإفريقية في هذا الجزء من القارة لتحول جميع الأفارقة إلى الإسلام بسهولة منذ عهد مبكر من تاريخ الإسلام .

وقد لا نبالغ إن قلنا إن الفضل في انتشار الإسلام في سواحل شرق إفريقيا الداخلية يرجع إلى الغزو البرتغالي للمنطقة وأن وصول الإسلام إلى الأطراف البعيدة من شرق إفريقيا يرجع إلى الاستعمار الأوروبي فيما بعد وأنه لولا تعرض المدن العربية الإسلامية في الساحل للدمار الذي أصابها من قبل البرتغاليين وهروب العرب والمسلمين إلى الداخل ومنع تجارة الرقيق لاحقا لبقيت أدغال إفريقيا على حالها الأول حتى هذا اليوم . وذلك إذا استثنينا الأجزاء الشمالية من الساحل ألا وهي الصومال التي يرجع الفضل في انتشار

---

[209] جمال زكريا قاسم ، العلاقات العربية الإفريقية، روية تاريخية للعلاقات العربية الإفريقية ، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم 1992، ص186

[210] ن.م ، ص380 ، حريز، سيد حامد ، الثقافة السواحلية ، أصولها ومقوماتها ، العلاقة بين الثقافة العربية والثقافة الإفريقية، تونس ،المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم 1985 ، ص159-160

[211] أرنولد،م.س ، ص382

[212] أرنولد ،م.س، ص383

الإسلام فيها إلى الزيدية إثر الصراع الذي نشب بينها وبين جماعة الأخوة السبعة وانهزامهم فيه مما اضطرهم إلى الانسحاب إلى الداخل والاحتكاك بالقبائل الصومالية الداخلية وبالتالي إبلاغ الرسالة المحمدية إليها[213].

ومن هنا قد يتساءل البعض إلى أي مدى يمكن وصف الغزوات الاستعمارية في ساحل شرق إفريقيا بالسلبية بالنسبة إلى هذه القبائل ؟ وهل يحق لنا تحميل الأوروبيين وزر إعاقة المد الإسلامي والثقافة العربية الإسلامية في ساحل شرق إفريقيا مع كل ما رأيناه ؟ أم أن العكس هو صحيح ؟ وأن إخفاق المسلمين في تحويل الزنوج إلى الإسلام عائد بالدرجة الأولى إلى سلوك العرب المشين الذي أشرنا إليه .

وخلاصة القول فإن ساحل شرق إفريقيا عرف الإسلام منذ وقت مبكر من تاريخه بغض النظر عن الطبقات التي انتشر في أوساطها وهو ما جعله يتفاعل مع العالم الإسلامي بكونه جزءا لا يتجزأ منه مما أسهم إسهاما فعالا في نقل الحضارة الإسلامية إليه ، وتشمل تلك الحضارة في مجملها النظم السياسية والإدارية ، بالإضافة إلى مقومات الحياة الفكرية والعلمية التي تضم العلوم النقلية والفنون المختلفة وهو ما سنتعرض إليه في المبحث التالي.

---

213 حسن إبراهيم حسن ، انتشار الإسلام والعروبة ، م.س ، ص12 ، أرنولد ،م.س، ص378 ، العراقي ، الإسلام ومراكز الثقافة الإسلامية ، م.س، ص167-168

المبحث الثاني: الأنشطة الثقافية والدينية في المنطقة

منذ ظهور الإسلام وازدهاره كدين ودولة وهجرة المسلمين إلى ساحل شرق إفريقيا حمل المهاجرون الثقافة العربية الإسلامية بمختلف علومها وفنونها إلى هناك .

وبالنظر إلى أن التعليم طبيعي في البشر فقد كان أول ما اعتنى به مواطنو شرق إفريقيا الساحلي ، بحيث حظيت العلوم الدينية أو ما سماه ابن خلدون بالعلوم النقلية الوضعية بقدر كبير من الاهتمام لديهم، كما هو الشأن لدى المسلمين في أنحاء العالم الإسلامي المختلفة [214].

ولقد اقتصر التعليم في الأول على المدارس القرآنية في الساحل ، ثم تطور فأصبحت هناك مرحلتان دراسيتان هما: مرحلة الكتاتيب ومرحلة العلوم العقلية والعلوم النقلية ، ففي الكتاتيب (DUGSI) يبدأ المعلم بتعليم الحروف العربية والآيات القرآنية ويردد المتعلم وراءه حتى يتقنها، وفي هذه المرحلة يحق للمعلم أن يضرب التلميذ كما يحلو له حتى إن هناك وصية شهيرة يرددها كل والد أثناء تسليم ولده للمعلم ، وهي أن يقول الوالد « لقد حضرت لكي أعهد إليك بابني ، لا تحافظ على شيء منه سوى عينيه إي لا تبخل عليه بالضرب [215] » وهو ما يدل على المكانة التي كان التعليم يحتلها لدى شعوب ساحل شرق إفريقيا ، ويأخذ المعلم أجرا عينيا أو نقدا عادة مقابل عمله هذا ، إلا أن هناك من يقوم بالتدريس مجانا ابتغاء مرضاة الله . والأدوات المستخدمة في هذه المرحلة هي اللوح (Loox, Looh) والقلم (Glim ،Qalin) والحبر (Inqaas ،Daawad) . وبعد أن يحفظ التلميذ القرآن جيدا ينتقل إلى دراسة العلوم النقلية والعقلية وعندئذ لا يخضع التلميذ لرقابة الوالدين إذ تصبح له حرية التنقل بين الشيوخ دون قيد أو شرط لزيادة معرفته العلمية[216] .

وفي هذه المرحلة يتم التدريس في المساجد أو في البيوت بدل الكتاتيب، كما أن الطلبة يعتمدون على الكتب العربية التي يفسّرها الشيخ باللغة المحلية –الصومالية أو السواحلية-. والطريقة المتبعة لدراسة العلوم هي أن الطالب يبدأ بالمختصرات فيتدرج حتى يصل إلى المستوى المطلوب، وليس هناك أي تدخل حكومي في المنهج التعليمي أو مراقبة الطلبة أو الشيوخ، وهو ما كان يسمح للطلاب بالتنقل بين مدن الساحل التي اشتهرت بإتقان علمائها علوما معينة، وكانت براوى ومركا ومقديشو وكلوه وممباسا كعبة الهداية والمعرفة. ولعل مدينة براوى التي تعد من أصغر المدن الساحلية خير دليل على مدى عناية تلك

---

[214] ابن خلدون ، المقدمة م.س ، ص476 و 482-483

[215] عبد الله نجيب ، مصطلحات سواحلية في ضوء العلاقات الاجتماعية ، معهد البحوث والدراسات العربية 1987 ، ص22

[216] العراقي ، معالم الحضارة الإسلامية في ساحل شرق إفريقيا في العصور الوسطى ، دراسات إفريقية ، مجلة بحوث نصف سنوية العدد الثاني ، شعبان 1406هـ أفريل 1986م ، ص92

البلدان بالمعرفة الدينية إذ انتظمت دراسة الحديث والتفسير والفقه في حوالي خمسة وعشرين مسجدا من مساجد هذه المدينة رغم صغرها[217].

أما من حيث المراتب العلمية التي كان الطلاب يصلون إليها فقد كانت هناك إجازات أو تراخيص تمنح للطالب بعد أن يجمع أقصى ما يمكن جمعه من فروع المعرفة ، ولم تكن هناك مجالات للتخصص في علوم معينة وإنما كان الطلاب يتعلمون جميع العلوم الإسلامية وآدابها . وأما الترخيص فقد كان يعطيهم حق القراءة على الآخرين ويدخلهم في سلك العلماء [218].

هذا ويُذكر أن الطريقة المتبعة في التدريس والتي كانت تعتمد على اللغات المحلية في فهم المعنى كانت قد أضعفت اللغة العربية عندهم إلا أن هذا لم يمنع نبوغ بعضهم في الصومال من أمثال الفقيه عبد الله الزيلعي والذي تولى مناصب إدارية وقضائية عديدة في القرن الرابع عشر[219]. كما برز في كلوه وممباسا عدد كبير من العلماء منهم الشيخ سميط الذي تولى منصب قاضي قضاة زنجبار في القرن الخامس عشر ، والقاضي علي حميد قاضي قضاة كلوه ، وحسن أمير الشيرازي من علماء الحديث والتفسير في كلوه [220]، ومنهم كذلك الشيخ علي إبراهيم ، المفتي الذي قرأ الفقه والفرائض والحساب ، وآدم أبي بكر الجبرتي من علماء اللغة البارزين في المنطقة[221].

وهناك أيضا علماء آخرون من أبناء ساحل شرق إفريقيا حازوا شهرة عالمية فاهتم بهم كتاب تراجم العلماء المسلمين البارزين في مجال العلوم الإسلامية المختلفة ، ونذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الشيخ فخر الدين عثمان بن علي بن يحيى بن يوسف الزيلعي الذي قدم إلى القاهرة سنة 705ه / 1305م ودرس فيها وأفتى [222]. والشيخ جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن محمد الزيلعي الذي لازم مطالعة كتب الحديث برفقة زين العابدين العراقي إلى أن أخرج أحاديث الهداية وأحاديث الكشاف [223].

---

[217] العراقي ، معالم الحضارة الإسلامية ، م.س ، ص92-93 ، ترمنجهام .م.س ، ص160-162 ، عبد الله نجيب ، م.س ص23

[218] عبد القادر شيخ عبد الله ، تاريخ التعليم في الصومال ، مقديشو ، 1978م ، ص21-22

[219] ن.م. نفس الصفحة

[220] حمدي السيد سالم ، م.س ، ص346

[221] ن.م. نفس الصفحة

[222] السقلاني ، شهاب الدين أحمد بن حجر السقلاني ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ج3 ، (تحقيق محمد سيد جاد الحكم) ، القاهرة 1966م ، ص61 ، عبد الرحمن زكي ، إفريقيا الإسلامية ، القاهرة 1958م ،ص36

[223] العراقي ، معالم الحضارة الإسلامية، م.س ،ص92

ومنهم كذلك الشيخ علي بن يوسف بن جبر الدين بن موسى الأزهري الشافعي المعروف بالجبرتي ، والذي قدم إلى القاهرة حوالي سنة 850هـ / 1446م وقرأ بها القراءات على الشهاب الإسكندري والشمس بن العطار وآخرين وسافر إلى دمشق سنة 876هـ / 1471م وقرأ بها القراءات على ابن النجار ثم رحل إلى بغداد وصاحب فضل القادري من ذرية الشيخ عبد القادر الجيلاني ، ثم رجع إلى القاهرة وجلس في خلوة بسطح الأزهر ، كما أصبح مقربا من السلطان المملوكي قايتباى الذي اعتقد في صلاحه وولائه. ولقد بنى له جامعا بمدينة أدكوا في مصر عام 878هـ /1473م التي توفي بها سنة 899هـ/ 1493م [224].

ولعل الملاحظة التي يمكن تسجيلها في هذا الصدد هي ندرة وجود مؤلفات كثيرة لهؤلاء العلماء والفقهاء فيما يفسر الباحثون ذلك بعاملين :

العامل الأول أن الطريقة المذكورة في التدريس لم تساعد في إثراء الجانب اللغوي الذي لا بد منه إذا ما تعلق الأمر بالتأليف مع أن ذلك لم يحل دون تجاوز البعض منهم الحاجز اللغوي . أما العامل الآخر فهو أنهم ربما ألفوا وكتبوا في شتى الفنون والعلوم لكن الحروب المدمرة قد أحرقت وأتلفت ما أنجبت قرائحهم [225].

ومهما يكن من أمر فإن الحركة العلمية في شرق إفريقيا قد ازدهرت على أيدي هؤلاء العلماء والفقهاء الذين تلقوا تشجيعا كاملا من قبل السلطات نظرا لحاجة الدولة إلى وجود طائفة متمكنة من الثقافة الإسلامية تساعدها على تسيير شؤون البلاد [226].

هذا و لم تقتصر الحياة الثقافية والعلمية في ساحل شرق إفريقيا على هذا الصنف من العلوم ، بل ظهرت عناية أيضا بالطب وفنون النحت والعمارة وفنون الملاحة ...إلخ .

فالطب مثلا كان يمارس في ساحل شرق إفريقيا على نطاق واسع سواء منه الطب المأثور من الكتاب والسنة كقراءة القرآن على المرضى وهو من اختصاص العلماء بالطبع ، أو الطب التجريبي من عقاقير النباتات والكي والحجامة وجبر الكسور وكلها في قالب إسلامي ، وكان العلماء يكتبون أحجبة يعتقد السكان أنها تدفع عنهم الشرور ، وقد مورست في ساحل شرق إفريقيا جميع أنواع الطب الإسلامي ، إضافة إلى عادات صحية أخرى كالختان الذي غالبا ما يقوم به إمام المسجد أو رجل كبير في السن له خبرة في هذا المجال . وكان الطبيب يسمى "حكيمي" وهي من كلمة حكيم التي شاع استعمالها في العالم الإسلامي في العصور الوسطى . هذا ولا يعرف على وجه التحديد متى بدأ انتشار البيمارستانات بصورة

---

[224] العراقي ، معالم الحضارة الإسلامية ، م.س ، ص92.

[225] حسن أحمد محمود ، م.س ، ص448

[226] العراقي ، معالم الحضارة الإسلامية ، م.س ، ص92-93

موسعة في بلاد شرق إفريقيا ولكن من الثابت أن أهمها كان في كلوه أيام أبي المواهب ، وظهرت العيادات المتنقلة فيما بعد في شرق إفريقيا ثم الصيدليات . وكانت ممارسة الطب يتوارثها الأبناء عن الأباء عادة[227] .

أما الفنون الإسلامية الأخرى كالنحت والعمارة والنقش فيبدو أنها أكثر إبرازا للأثر الذي تركه العرب والفرس في ساحل شرق إفريقيا ، ويظهر ذلك بوضوح في الأبنية الحجرية وزخارف الأبواب والشبابيك التي صممت على الطراز العربي الإسلامي . كما يظهر الفن الفارسي في النقوش والزخرفة لكثير من المباني القديمة ، وهو ما أضفى رونقا وجمالا على مدن ساحل شرق إفريقيا . وقد ذكر بحار صيني أن منازل مقديشو كانت من أحجار ذات أشكال رباعية تقريبا[228]. وذكر ماتيو وكنغسنوث أن مباني كلوه جميلة ومنازلها من الحجر الصقيل ونوافذها مفتوحة على شوارع مستقيمة، ، ونعت دي باروس ممباسا بالمدينة الجميلة ذات الشوارع المنظمة[229] .

ولقد كان لاهتمام السلاطين بتطوير المدن في شرق إفريقيا أثر كبير في تطور فن العمارة بحيث أبدع الفنانون في تجميل المباني وزخرفتها أيما إبداع وزينوا المساجد والقصور . وفي كلوه شيد السلطان سليمان حسن الملقب بالعظيم قصور فخمة أبرزها القصر الملكي الخاص الذي يعتبر من أجمل القصور في ذلك الوقت والذي بني بداخله قاعة كبيرة للاجتماعات تسع لما يزيد على ثلاثمائة زائر . ويشبه هذا القصر في روعته وجماله قصور الأمويين في دمشق وقرطبة [230]. كما تُظهر النقوش الموجودة بمقديشو والتي يرجع تاريخها إلى سنة 667هـ / 1238م أقصى درجات التطور والازدهار التي وصلت إليها حضارتها في القرن الثاني عشر الميلادي . ومن الأبنية الضخمة التي تعكس التراث العربي الفارسي نذكر أبراج مسجد الجامع في حمروين (Xamar weyne) الذي يظهر منه الفن الفارسي النيسابوري في الهندسة المعمارية والنقش والزخرفة بصفة خاصة [231].

أما في الملاحة وما تقتضيه من معارف ، فحدث ولا حرج ، ذلك أن العرب منذ القدم عُرفوا بمهارتهم في هذا الفن . ومن أهم المعارف التي طورها العرب في شرق إفريقيا معرفة الطرق الآمنة ونظام سير الرياح ومواقيتها ومواقع الجزر في البحر واختراع الآلات التي تساعدهم في ذلك مثل البوصلة والإبرة المغناطيسية فضلا عن رسم الخرائط . وخير دليل على ازدهار الملاحة لدى أهل ساحل شرق إفريقيا أن

[227] العراقي ، معالم الحضارة الإسلامية . م.س. ص95-96 ، ترمنجهام ، م.س ، ص212

[228] حمدي السيد سالم ، م.س ، ص327

[229] Marsh & Kingsnorth, Op. Cit. P. 125

[230] Reusch , op. Cit. P145

[231] حمدي السيد سالم، م.س ، ص79-80

أكثر الأوروبيين مهارة في ركوب البحار آنذاك – نعني البرتغاليين- قد اعتمدوا على ملاحين أفارقة في اكتشاف الطريق إلى الهند[232] .

هذا ولم يقتصر الأثر العربي والفارسي في الحياة الثقافية على الجوانب العلمية والمعرفية فقط وإنما تجاوز إلى جميع الأنشطة الأخرى كالأعياد والمناسبات الدينية على سبيل المثال. ولسكان ساحل شرق إفريقيا نوعان من التقاليد:

النوع الأول ناتج عن الديانة الإسلامية كالأعياد الدينية والاحتفال بالمولد النبوي الشريف ، ويقيم السكان حفلات الذكر والمديح خاصة في أعياد الفطر والأضحى فضلا عن الاحتفالات السنوية التي تقام للأولياء والصالحين . هذا إلى جانب التقاليد الدينية الأخرى . ويذكر ترمنجهام أن سكان شرق إفريقيا يقيمون الأذكار مساء ليلة الاثنين ويوم الجمعة عقب الصلاة مستعملين في ذلك الآلات الموسيقية في بعض الأحيان[233] .

أما النوع الثاني فمصدره حياة الوطنيين كمراسم الزواج والختان وغيرهما من العادات والتقاليد الهامة في ساحل شرق إفريقيا. ولعل أبرز ما يلفت الانتباه في هذه الأمور تقاليد الزواج التي تعتبر ثمرة تلاقح الثقافة الإفريقية المتميزة بالبساطة والثقافة الإسلامية التي تمتاز بالانضباط .

وتبدأ إجراءات الزواج بأن يرسل الولد والديه أو بعض أهله لخطبة البنت التي يريدها للحصول فقط على موافقة والديها الذين لا خيار لهما في أغلب الأحيان سوى القبول والموافقة على الزواج ، طالما يكون الرجل ذو حسب ونسب . وعلى إثر ذلك يحدد يوم لعقد القران ، وتتم دعوة الأهل والأقارب وتقدم لهم الحلوى ، وغالبا ما يتم ذلك داخل المسجد بحضور فقيه أو أحد كبار العلماء . والطريف في هذا الشأن أن المهر لا يدفع إلا عند الطلاق أما إذا لم يحصل الطلاق فلن يدفع على الإطلاق [234].

هكذا يمكن القول إن الأثر العربي والفارسي على سكان ساحل شرق إفريقيا كان يشمل جميع مظاهر الحياة الثقافية ، وأن الإسلام قد فتح لسكان هذا الساحل أبواب المعرفة والتعليم ، كما انعكس على عاداتهم فأعطاها صبغة شرعية إسلامية تتفق والقيم الدينية في أغلبها ، وكبقية أصقاع العالم الإسلامي فقد حمل المسلمون إلى شرق إفريقيا اختلافاتهم المذهبية والكلامية أيضا وهو ما سنتعرض إليه في هذا المبحث التالي .

---

[232] صلاح العقاد وجمال زكريا قاسم ، زنجبار ، القاهرة 1959م ، ص9

[233] العراقي ، معالم الحضارة الإسلامية ، م.س ، ص99

[234] صوار أحمد ، الصومال ، القاهرة 1959م ص11

المبحث الثالث: المذاهب الفكرية في المنطقة

لقد ارتبط تاريخ الفرق والمذاهب الإسلامية في ساحل شرق إفريقيا بالهجرات العربية التي وفدت إليه منذ ظهور الإسلام ، وبتاريخ انتشار الإسلام فيه . ومن أبرز الفرق أو المذاهب الكلامية التي عرفها الشرق الإفريقي الساحلي فرقة الإباضية ، أشهر فرق الخوارج وفرقة الزيدية أكثر الفرق الشيعية اعتدالا ، وكذلك الفرقة الإسماعيلية إضافة إلى المذهب السني الذي يغلب على مسلمي الساحل اليوم [235].

وقد جاء المذهب الإباضي مع العمانيين منذ هجرتهم الأولى إلى المنطقة تحت قيادة سعيد وسليمان ابني عباد الجلندي، إثر الصراع الذي نشب بينهم وبين الخلافة المركزية في دمشق [236]. وكما أشرنا إليه فإنه لا يعرف على وجه التحديد أين نزلوا من الساحل، إلا أنه من المؤكد أن العمانيين الذين كانوا في الساحل تمذهبوا به دون غيرهم، حيث كان بمثابة هويتهم التي يتميزون بها عن سواهم، مما يعني أن التحول إلى هذا المذهب كان محدودا ، وعموما يكون ذلك عن طريق الولادة حيث يولد المرء إباضيا في إطار عائلة إباضية. ويقول ترمنجهام : « والواقع أنه لا يوجد إفريقي واحد من الإباضية . وأكد الإفريقيون المسلمون أن السبب في ذلك أن العرب العمانيين طالبوا عبيدهم باتباع الشافعية ويرجع ذلك إلى اعتقادهم في تفوقهم العنصري [237] » وهو ما انعكس سلبا على أصحاب هذا المذهب في وقت لاحق حين فقدوا سيادتهم واضطروا إلى الاندماج في الوسط الإفريقي ، حيث تحول كثيرون منهم إلى المذهب الشافعي للتخلص من العزلة الاجتماعية . ومن أبرز القبائل التي حملت معها المذهب الشافعي إلى شرق إفريقيا قبيلتا الجعفيري والحناوي[238] .

أما المذهب الزيدي فقد وصلت إلى ساحل شرق إفريقيا إثر نزوح جماعة منهم فرارا من بطش الأمويين ، وقد جاء أغلبهم من منطقة اليمن التي تعتبر حتى اليوم موطنا رئيسيا لهذا المذهب . ويبدو أن المذهب الزيدي كان أكثر حظا من المذهب الإباضي من حيث الانتشار في الساحل لسببين اثنين :

أولهما أن الصراع الذي نشب بين جماعة الزيدية وجماعة الأخوة السبعة دفع بالزيديين إلى الانسحاب إلى الداخل وبالتالي احتكوا بالقبائل الإفريقية فنشروا بينها مذهبهم .

---

[235] Trimingham (j.s) , The influence of islam upon Africa , Longmans Librairie du Liban 1968 , P58-79 .ترمنجهام ، م.س ص153

[236] الطبري ، تاريخ الأمم ، م.س، ص462-463

[237] ترمنجهام ، م.س ، ص145

[238] ن.م ، نفس الصفحة

وأما السبب الثاني فيعود إلى أن هذا المذهب لم يكن يخص طبقة دون أخرى وإنما كان لكل الناس على خلاف ما رأيناه في المذهب الإباضي مما مكنه من الانتشار في الأوساط المختلفة من شعوب شرق إفريقيا وإن انحصر فيما بعد أمام المذهب السني الذي اجتاح المنطقة[239] كما سيأتي . ويذكر رويش في هذا الصدد إن المذهب الزيدي لم ينتشر على نطاق واسع بسبب التكبر الذي كان يمارسه العرب الزيديون في أول الأمر حين كانوا أسيادا في المنطقة، ولكن لما أطاح الأخوة السبعة بحكمهم واضطروا إلى الانسحاب إلى الداخل تزوجوا من الإفريقيات وانجبوا منهن ، وبالتالي نشروا مذهبهم هذا في القبائل التي صاهرتهم[240].

أما المذهب الإسماعيلي فقد انتشر بين الهنود المسلمين الذين أتوا به إلى المنطقة منذ وصولهم إليها . وقد انغلق هؤلاء على أنفسهم وعاشوا في عزلة عن المجتمع العربي كما أنهم لم يختلطوا بالأفارقة أيضا مما قطع السبيل أمام إمكانية انتشار هذا المذهب في أي مجتمع آخر[241] . وتذكر الروايات التاريخية عن هذا المذهب أنه انتشر على نطاق واسع في بلاد فارس وأجزاء مختلفة من بلاد الشام ، وقد تعاظم شأنه في اليمن في القرن الثاني عشر الميلادي بصفة خاصة[242] . وهو ما يعني أن بعض اليمنيين في ساحل شرق إفريقيا ربما كانوا يتمذهبون بهذا المذهب إلى جانب الهنود ولكنهم تحولوا منه إلى الإباضية أو السنة تيمنا بالأرستقراطية العربية الحاكمة أو أغلبية الشعب هناك . كما لا يستبعد أن يكون بعض الفرس قد اعتنقوا هذا المذهب قبل أن يرتدوا منه ، إذ تذكر بعض الروايات أيضا أن اجتياح المغول لأقاليم العالم الإسلامي ومدنه واستيلاء هولاكو على قلعة آلموت ، قد أدّيا إلى هجرة العديد من الإسماعيلية إلى ساحل شرق إفريقيا فرارا من أهوال المذابح التي حلت بهم على أيدي الغزاة سنة 1256م [243]. مما يفيد أن البعض من الفرس الذين وصلوا إلى الساحل ربما كانوا على المذهب الإسماعيلي، في البداية على الأقل .

وعلى العموم فإن المذهب الذي لاقى انتشارا واسعا في ساحل شرق إفريقيا هو المذهب السني الذي قدم من منطقة الإحساء في الخليج العربي كان ذلك مع قدوم جماعة الأخوة السبعة من قبيلة الحارث العربية[244] . وقد استقر هذا المذهب بالمناطق الشمالية من الساحل أولا، ثم انتشر إلى الجنوب حتى ممباسا . وبتوسع نفوذ جماعة الأخوة السبعة على حساب الشريط الساحلي كله وصل هذا المذهب حتى سوفالا[245]

[239] Ingrams, *Op. Cit.* P77

[240] Reusch, *Op. Cit.* P.80-81

[241] الحويري ، م . س ، ص 51-52

[242] ن.م ، ص51-52

[243] ن.م ، نفس الصفحة

[244] Ingrams, *Op. Cit.* p75-76

[245] Oliver & Mathew, *Op. Cit.* p. 102.

. ويرجع تفوق المذهب السني على بقية المذاهب في هذا الساحل إلى عاملين أساسيين، أولهما : أن جماعة الأخوة السبعة كانت أقوى جماعة استطاعت بسط سيطرتها على جميع المدن الساحلية انطلاقا من مقديشو التي كانت عاصمتها، وهذا يعني أن المذهب السني كان أول مذهب استطاع أن يصل إلى كل أجزاء ساحل شرق إفريقيا.

أما العامل الثاني فهو أن ساحل شرق إفريقيا لم يعرف التعصب المذهبي الذي مزق العالم الإسلامي في العصور الوسطى، بل إن نظام الحكم في هذا الجزء من القارة الإفريقية لم يكن يهتم بالمذهبية، وذلك لأن المسلمين هناك كانوا ضحايا حروب ونزاعات مذهبية قبل قدومهم إلى الساحل فاستوعبوا الدروس من ذلك ، ويشير ترمنجهام إلى التسامح المذهبي الذي كان سائدا هناك بقوله: « وقد أبدت الإباضية تسامحا كبيرا في شرق إفريقيا حتى مع المجموعات الشيعية، وكان يسمح للإثني عشرية أن يقيموا منبرا أماميا حيث ينتحبون فيه على موت شهدائهم [246] ». وقد رأينا كيف شجع الإباضيون عبيدهم على اتباع الشافعية، وهو ما مكن المذهب السني من البقاء والانتشار على مر هذه العصور رغم عدم كونه مذهب النخبة الحاكمة في أي من السلطنات الإسلامية هناك.

هذا وتجدر الإشارة إلى أن هناك أخبارا غير مؤكدة تقول إن الشيرازيين أيضا كانوا سنيين لأن المذهب الشيعي الذي يسود حاليا في إيران لم يصل إلى شيراز إلا بعد هجرة هؤلاء منها. وعلى أية حال، ليس هناك ما يؤكد هذا الخبر كما أننا لم نسمع في التاريخ الإسلامي من تحول عن المذهب السني إلى المذهب الشيعي، مما يشكك في صحة هذا الخبر.

ومهما يكن من أمر فإن المذاهب السنية قد حظيت بإقبال كبير وانتشار واسع في ساحل شرق إفريقيا إلى أن أصبحت تحتل المرتبة الأولى في المنطقة باعتراف الرحالة والجغرافيين العرب المسلمين .

على أن المذهب الشافعي كان الأكثر شهرة هناك [247]، وانتشر هذا المذهب في الساحل في الفترة الواقعة بين سنة 813 وسنة 975 الميلاديين على ما يبدو، وهي الفترة التي كانت دولة الأخوة السبعة في أوج ازدهارها. ويفهم من هذا أن جماعة الإحساء المذكورة أو قبيلة الحارث العربية التي جلبت المذهب السني إلى الساحل قد جلبت المذهب الشافعي إلى المنطقة[248].

ومما يؤكد مدى انتشار هذا المذهب في ساحل شرق إفريقيا أن أهالي مقديشو وممباسا وكلوه كانوا يتبعون هذا المذهب في القرن الثالث عشر الميلادي. ويقول ابن بطوطة في هذا الصدد : « والغالب

[246] ترمنجهام ، م .س ، ص154
[247] Trimingham, *Op. Cit.* , p. 58
[248] Ingrams, *Op. Cit.* p77

عليهم الدين والصلاح وهم شافعية المذهب... وهم طائفة من السودان شافعية المذهب[249] » في إشارة واضحة إلى أن هذا المذهب كان للأكثرية السوداء في المنطقة بينما كانت المجموعات الأخرى التي تعتبر أقلية في الإقليم تمارس شعائرها وفقا لمذاهبها الخاصة بها ، وعلى سبيل المثال فإن المسلمين الهنود كانوا يتبعون المذهب الحنفي ، هذا المذهب الذي كان غالبا في الهند ، على أن المذاهب المختلفة كانت معترفا بها في ساحل شرق إفريقيا فيما كان القضاة يعينون من الإباضية والشافعية فقط ، وهذا بحكم أن الإباضية كانت مذهب الطبقة الحكمة وأن أغلبية السكان كانوا على المذهب الشافعي[250].

وهكذا تعايشت المذاهب الدينية في ساحل شرق إفريقيا جنبا إلى جنب ، بعيدا عن القمع والإقصاء الذي كان مستشريا في أنحاء العالم الإسلامي آنذاك.

أما الطرق الصوفية فقد وصلت إلى ساحل شرق إفريقيا متأخرة بعض الشيء ، إثر انتشارها في شبه الجزيرة العربية. ويرجح الدكتور حسن أحمد محمود أن الطرق الصوفية لم تتسرب إلى شرق إفريقيا إلا في أوائل القرن الخامس عشر الميلادي[251].وتعتبر الطريقة القادرية أو الجيلانية أقدم الطرق الصوفية في ساحل شرق إفريقيا وقد وصلت إلى هناك بفضل المهاجرين اليمنيين أو الحضارمة وقد أصبحت مقديشو من أهم معاقلها الرئيسية قبل أن تأتي الطريقة الأحمدية لتغلب في المنطقة[252].

وعلى الرغم من أسبقية القادرية إلى ساحل شرق إفريقيا فإن تأثير هذه الطرق في المدن كان يختلف من مدينة إلى أخرى . فبكلوه مثلا نجد الطريقة الشاذلية هي الغالبة بها بينما القادرية تغلب على سكان مالندى، وفي زنجبار تتساوى حظوظ جميع هذه الطرق. ويروي أتباع الطريقة القادرية في مالندى وزنجبار أنها قدمت أصلا من براوى على الساحل الصومالي على يد السيد عمر القلتين المدفون في ويليزو على بعد أربعة أميال من زنجبار . وفي ذكراه تجرى احتفالات كبيرة ويرتل المريدون آيات متعددة من القرآن ، ويقضون الليل في الذكر والترتيل، وتتميز هذه الطريقة بأنها أكثر هذه الطرق ثقافة وتمدنا . وإن أفرادها لا يميلون إلى احتراف الزراعة أو الصناعة وإنما يقومون بمهنة التعليم في ساحل شرق إفريقيا[253].

ومن الطرق الصوفية التي انتشرت في زنجبار وفي بعض المناطق الساحلية في أواخر العصور الوسطى الطريقة الرفاعية وهي الطريقة الوحيدة التي تسمح باستعمال الطبول في حلقاتها ، كما ينشد مريدوها قصائد كثيرة باللغات المحلية -الصومالية أو السواحلية- أكثر من أي طريقة أخرى، ويمارس أتباعها بعض

---

[249] ابن بطوطة ، م.س ، ص283 و 279

[250] ترمنجهام ، م.س ، ص153

[251] حسن أحمد محمود ، م.س ، ص428

[252] Trimingham, *Op. Cit.* p97-98

[253] ن.م ، ص90-100

الممارسات الخاصة بطريقتهم كغرس الآلات الحادة في أجسادهم وابتلاع النيران وترويض الثعابين[254]، وهو ما يعتبر لديهم بمثابة التوبة عملا بقوله تعالى « فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم[255] ».

هذا ووجدت الطريقة العلوية أيضا سبيلها إلى ساحل شرق إفريقيا ، وتأسست هذه الطريقة على أيدي محمد بن علي بن محمد (ت 1255م)، ولها شعبتان هما العيدروسية التي أنشأها الشريف أبو بكر بن عبد الله العيدروسي المتوفى سنة 1509م والحدادية التي أرسى قوائمها عبد الله بن علوي بن أحمد الحداد (ت 1720م)[256].

وهكذا وفدت طرق صوفية عديدة إلى ساحل شرق إفريقيا في العصور الوسطى وقد ساهم شيوخها في الدعوة إلى الإسلام، بل يمكن القول بأن انتشار الإسلام بين الأفارقة السواحليين يرجع بالأساس إلى هذه الطرق خاصة وقد تزامن نشاطها مع الغزو البرتغالي للمنطقة وما تلاه من وصول الاستعمار إلى المنطقة .

وخلاصة القول إن الإسلام في بعض الجونب أخرج سكان ساحل شرق إفريقيا من ظلمات الجهل والتخلف إلى نور العلم والمعرفة ، ولعل البقايا الأثرية التي اكتشفت مؤخرا في طول ساحل شرق إفريقيا تؤكد ذلك .

---

[254] Trimingham, *Op. Cit.* p101

[255] مصف المدينة المنورة ، سورة البقرة ، الآية53 ، م.س ، ص8

[256] Trimingham, *Op. Cit.* P101

المبحث الرابع:الآثار الإسلامية في المنطقة

لقد كان من نتائج انتشار الإسلام في المنطقة أن انتقلت إليها مظاهر الحضارة العربية الإسلامية التي كانت في أوج ازدهارها حينئذ ، فتأسست بها المراكز الإسلامية التي أصبحت فيما بعد منابع علم ومعرفة يقصد إليها الطلاب من كل ناحية من أنحاء الساحل الإفريقي .

وكما أشرنا إليه ، فلقد تعرضت المدن العربية الإسلامية في هذا الجزء من القارة الإفريقية إلى تدمير شديد على أيدي البرتغاليين ، فاختفت تلك المدن كلية بمعالمها وتراثها ، ولقد كشف مؤخرا النقاب عن الآثار الإسلامية إثر الأبحاث الأثرية التي أجريت في الآونة الأخيرة هنا ، وهو ما سنتعرض له في هذا المبحث.

وترجع أقدم هذه الآثار إلى القرن الثالث عشر الميلادي ، وهي متناثرة في جميع مدن هذا الساحل من مقديشو شمالا حتى سوفالا جنوبا . ففي مقديشو نجد مسجد الجامع الكبير ذي المنارة المستديرة ، المعروف باسم "مسجد عبد العزيز" والمطل على البحر في ضاحية عبد العزيز ، وقد تم بناء هذا المسجد حسب النقيشة المكتوبة بخط النسخ والمثبتة على أبواب المسجد في الأول من محرم من عام 636هـ / 14 أوت 1238م [257]. إلا أن الأدب الشعبي يذكر لنا قصة غريبة في هذا الصدد ، وهي أن وليا من أولياء الله يدعى عبد العزيز كان يتعبد في جبل على حافة البحر في موقع المسجد ، وبكرامة الشيخ ابتعد البحر فجأة عن الجبل الذي كان معرضا لأمواج البحر الشديدة التي كانت تضايق الشيخ أثناء تعبده ، فظهرت له منارة تحتها بئر شديد الحلاوة ، فإذا بمسجد يوجد هناك أعده الله له [258].

ورغم غرابة هذه القصة فإن ما يمكن استنتاجه منها أن عبد العزيز هذا ربما كان هو مؤسس هذا المسجد، وغير بعيد عنه وفي ضاحية حمروين (Xamar weyne) يقع مسجدان آخران هما مسجد فخر الدين المعروف باسم " مسجد الجامع الحمروين" (Masjid jaamaca Xamar weyne) ومسجد أربع ركن[259] (Arbaca rukun). وينسب بناء الأول منهما إلى أبي بكر فخر الدين أول سلاطين مقديشو ، وهناك لوحة من الرخام مثبتة على المحراب صنعها الحاج بن محمد بن عبد الله وتحمل تاريخ نهاية شعبان من عام 667هـ / 1268م [260]، وهذا يقابل تاريخ إنشاء المسجد ، وعلى مقربة من هذا المسجد يوجد مسجد أربع ركن (Arbaca rukun) الذي شيده خسرو محمد بن محمد الشيرازي حوالي عام 724هـ/ 1296م كما هو منقوش على محرابه . و يتداول الأدب الشعبي بخصوص بناء هذا المسجد أن رجلا (قد يكون خسرو بن محمد

---

[257] عبد الرحمن زكي، الإسلام والحضارة العربية في شرق إفريقيا ، م.س ، ص44

[258] أخذت هذه المعلومات من الأدب الشعبي الصومالي الذي استمعت إليه خلال إجراءي للبحث الميداني .

[259] الحويري . م.س ، ص101

[260] عبد الرحمن زكي ، الإسلام والحضارة العربية . م.س . ص44

الشيرازي) وزوجته كانا في سفر على ناقة عرجاء فترلا هذا المكان ليؤديا فريضة المغرب وبعد أن انتهيا من الصلاة تقدم إليهما أربعة غرباء من أولياء الله الصالحين، ونزلوا ضيوفا عليهما فتشاور الرجل مع زوجته في طعامهم و لم يجدا سوى ناقتهما فذبحاها لهم ، فأكل الضيوف لحم الناقة وافترشوا جلدها وناموا ليلتهم هناك . وفي صباح الغد استيقظت الزوجة قبل زوجها فأرادت إلقاء التحية على الضيوف ، فإذا بها أمام ذهب كثير على فراشهم دون أن يكون أحدهم هناك . ومن هنا أدرك الرجل وامرأته أن ما رأوه كان اختبارا لكرمهم فقرروا إنفاق ما حصلوا عليه في بناء مسجد جامع في عين المكان[261].

هذا ولا تقتصر الآثار الإسلامية في مقديشو على هذه المساجد وإنما هناك قلاع وقصور يطول بنا الحديث إذا ما حاولنا التعرض إليها . أما في مدينة مركا التي تقع جنوب مقديشو ، فمن أبرز معالمها مسجد الشيخ عثمان الذي أعيد ترميمه في عام 1560م وإن كان لا يعرف على وجه التحديد متى تم تأسيسه وعلى أيدي من . وهناك مسجد آخر مهم أيضا في المدينة ويعود تاريخه إلى عام 1690م . وأما مدينة براو Baraawe فقد اختفت أغلب آثارها من جراء الخراب الذي لحق بها، إلا أن جامعها الكبير الذي يعود تاريخه إلى ما قبل القرن الخامس عشر يشهد لنا بمجد حضارتها وإن كان لا يعرف متى تم بناؤه على وجه التحديد[262].

وبعيدا عن هذه المدينة وداخل الحدود الكينية نصادف آثارا إسلامية هامة في أرخبيل لامو، وخاصة في مدن جزيرة بات من فازة وسيو وبات، حيث نجد في هذه المدن أسوارا وجوامع مهدمة وأخرى بنيت على أنقاض آثار قديمة . وأهم هذه الآثار مسجد بوانا شالي فتاني الكبير ومسجد مويني نجومبي ، كما أن هناك أطلال مساجد أخرى في مختلف جزر الأرخبيل كمسجد تندوا في تندوا وجامع تكوا في تكوا ، وكذلك جامع ماندا في جزيرة ماندا من الأرخبيل [263].

أما في مالندى الجزيرة التالية لأرخبيل لامو فأهم ما فيها من آثار إسلامية تلك المقابر ذات الأعمدة المستديرة والتي تعود إلى رجال حسن بن علي الذي يعتقد أنه فقد بعضا من خيرة رجاله في هذه المدينة حين زحف عليها فدمرها ثم بنى في مكانها المدينة الحالية[264] . ويبدو أن مقابرهم أصبحت محل إجلال بعد أن استتب الأمر على الساحل للشيرازيين الذين عمدوا إلى بناء هذه المقابر تخليدا لذكرى شهدائهم .

وتقع قريبا من مالندى جزيرة كليفي التي بقيت من آثارها أطلال مساجد اشتهرت بجمال هندستها المعمارية، ومنها حتى شواطئ ممباسا تتناثر بقايا مساجد وقصور وقبور لا حصر لها على طول

---

[261] حمدي السيد سالم، م.س ، ص357

[262] عبد الرحمن زكي ، الإسلام والحضارة العربية، م.س، ص45

[263] ن.م ، ص45-47

[264] ن.م ، ص47

الساحل ، وأبرز ما عثر عليه في هذا الشاطئ تلك التي كشف النقاب عنها كيركمان (Kirkman) في مدينة جيدي الزهراء التي لا يعرف حقيقة متى زالت عن الوجود ، مع أن آثارها تشهد لنا ما عرفته من ازدهار في العصور الوسطى . ومن أهم آثار هذه المدينة جامع كبير ، بناؤه مستطيل الشكل يشمل على محراب ومنبر له ثلاث درجات في جداره الشمالي، وغرفة خاصة بالإمام في الجانب الغربي منه، وشرفة في شرقه ، وميضة في الصحن، وثلاث أبواب في جدرانه الأربعة. وعلى بعد بضع مئات من الياردات يوجد قصر عظيم جميل الهندسة، يحتوي على عدد كبير من القاعات الفسيحة والمتوسطة، وبمو صالح للاجتماعات وآخر للاستقبال، كما يشمل هذا القصر على عدد من الأفنية والحدائق الجميلة[265].

أما ممباسا فتلقي المساجد والدور القديمة الضوء على طراز عمارتها الجميلة التي نشاهدها اليوم في بقايا أطلالها القليلة، وقد تحدث ابن بطوطة عن جمال مساجدها على وجه الخصوص، إلا أن ما عثر عليه من آثار إسلامية فيها حتى الآن لا يليق بسمعتها ، ولا شك في أن تراثها قد ضاع كلية تحت الأنقاض بسبب ما تعرضت له من دمار شديد ، و لم يكتشف بعد إلا القليل من تراثها الثمين[266].

وبعيدا عن هذه المدينة، تمدنا جزيرة زنجبار في تنزانيا معلومات أثرية وفيرة عن الرخاء الذي نعمت به مدن هذه الجزيرة ،إذ تصادفنا هناك مباني حجرية رائعة أ همها المسجد القديم في مدينة كيزمكازي الواقعة جنوب الجزيرة . ويعتبر هذا المسجد من أعجب المباني في ساحل شرق إفريقيا، وقد بني في عام500 ه /1107م بأمر من الشيخ السيد بن عمران مقوّم الحسن بن محمد حسب النقش الكوفي المثبت فوق محراب المسجد[267]. والأرجح أن الرجل ينحدر من سلالة حسن بن علي الشيرازي . وفي تومباتو التي تقع شمال غربي الجزيرة أطلال مساحات كبيرة تشمل على بقايا أسوار ومساجد وقصور مثلما هو الشأن بالنسبة إلى .بمبا التي وجد فيها كيركمان Kirkman على مجموعة من المساجد الخربة والمهدم لاسيما الجانب الشرقي منها [268].

هذا وقد اكتشفت بفضل الأبحاث التي أجريت في أوائل القرن العشرين مواقع أثرية هامة على طول الساحل المقابل لزنجبار حيث تنتشر مقابر ومساجد ومجموعات منازل مهدمة هنا وهناك . وعلى بعد أميال قليلة جنوب نهر روفنجي تنهض مدينة كلوا التي تفخر بتراثها المجيد ، وأهم آثار هذه المدينة حصون

[265] عبد الرحمن زكي ، الإسلام والحضارة العربية ، م.س، ص47-48
[266] ن.م ، ص48-50
[267] ن.م ، ص52
[268] ن.م ، ص50-51

كبوا Husuni Kubwa وندوجو Husuni Ndogo وجريزة Husuni Gereza والجامع الكبير، ومسجد ذي القبة أو المسجد الصغير[269].

ويعتبر المسجد الكبير بكلوا أكبر المساجد المقامة على طول سواحل شرق إفريقيا في العصور الوسطى، وهو ما يجعله أهم مخلفات الآثار الإسلامية هناك، وقد كشف تشتك – صاحب الأبحاث الأثرية في كلوا– عن الإضافات والتغييرات التي طرأت على هذا المسجد، وهو يذكر أن أقدم بناء فيه يرجع إلى القرن الثاني عشر حين شيد لأول مرة القسم الشمالي منه في حين يرجع آخر بناء فيه إلى الثلاثينات من القرن الخامس عشر لما أعيد بناء الجزء الذي تعرض لحريق في عهد سليمان بن محمد (824-833هـ / 1421 -1430م[270]. وبين هاتين الفترتين الزمنيتين أقيمت منشآت كثيرة في المسجد ، أهمها تلك الموجودة في منطقة الميضأة التي تشمل على بئر ومستودعات للمياه . ويفترض تشتك أن اتساع المسجد بلغ حدوده الحالية في عهد أبي المواهب حين ضم الركن الجنوبي الشرقي إلى المسجد وأنشأت به القبة الكبرى[271]. وعلى مقربة من هذا المسجد بنحو 150 مترا يقع مسجد صغير يبدو أنه كان لذوي النفوذ والثراء في البلاد ، لكونه أكثر جمالا ورونقة من المسجد الكبير الذي يفترض أن يكون لعموم الناس ، ولعل الأحجار المزخرفة التي سقطت من محرابه تؤكد هذا القول[272].

وفي خلاصة هذا الفصل يمكن القول إنه رغم التدمير الذي تعرضت له المنشآت الإسلامية بمدن ساحل شر ق إفريقيا على أيدي البرتغاليين والأوربيين في مرحلة لاحقة ، فإن آثار تلك المنشآت ما زالت قائمة تشهد على مدى الإزدهار الذي بلغته الحضارة الإسلامية بتلك المنطقة .

[269] عبد الرحمن زكي ، م.س ، ص58 . Chittick, *Op. Cit.* P. 100-205

[270] Chittick, *Op. Cit.* P.61-67

[271] Ibid.p.66

[272] Ibid. p.161

الفصل الثاني:

أثر العربية في اللغات المحلية

لم يترك العرب أثرا أهم من الأثر اللغوي في ساحل شرق إفريقيا ، حتى إن الإسلام الذي جاءوا به إلى المنطقة لم يتوغل في أدغال إفريقيا مثلما توغلت العربية فيها ، ونجد مثلا لذلك في الأجزاء النائية من إثيوبيا المسيحية حيث يستعمل الناس مفردات عربية كثيرة دون أن يدروا مصدرها ، مما يعكس مدى عمق أثر هذه اللغة على اللغات المحلية في إفريقيا جنوب الصحراء .

وتعتبر اللغتان السواحلية والصومالية مختبرا لعطاء تلك اللغة وسخائها بالنسبة إلى هذه اللغات الإفريقية ، وهو ما سنحاول دراسته في هذا الفصل .

المبحث الأول: تأثير اللغة العربية في اللغة السواحلية[273]

تعد اللغة السواحلية من أبرز المظاهر الثقافية في ساحل شرق إفريقيا، وهي تعكس مدى الأثر الذي تركه العرب في تلك المنطقة ، وهي ثمرة اختلاط اللغة العربية بلهجة أو لهجات بانتو خلال الحقبة التاريخية التي بقي العرب هناك. وتعتبر هذه اللغة من أهم اللغات المستعملة في إفريقيا فهي تحتل المكانة الثانية بعد اللغة العربية من حيث الانتشار . ويقدر عدد الناطقين بها بأربعين مليون نسمة، كما تدرس في الجامعات ومعاهد اللغات في إفريقيا وأوروبا وأمريكا وآسيا . وهي اللغة الوحيدة للأفارقة السود التي اتخذتها منظمة اليونسكو كلغة عمل في نشراتها[274]. مما يجعلها تحتل الصدارة من بين اللغات المحلية في إفريقيا جنوب الصحراء من حيث الأهمية ، وقد اعتمد المبشرون على هذه اللغة في نشر ديانتهم المسيحية في أنحاء شرق إفريقيا ، وكذلك في المناطق الداخلية من القارة حيث ترجم الكتاب المقدس إلى اللهجات السواحلية المختلفة السائدة في هذه المناطق [275].

وتعرف اللغة السواحلية بأنها لغة لطيفة يطرب لها السامع ، ولها ثلاث لهجات معروفة : لهجة ممباسا وتعرف بكمفيتا (Kimvita) وتنتشر في المناطق الساحلية في كينيا، ولهجة كيوجوجا (Kiungoga)

---

[273] بالنسبة إلى قاموس اللغة السواحليّة إستعملت:

. Snoxall, R.A Kamusi ya Kiingereza-Kiswahili, Dar essalam first published 1958

[274] ه .م.باتيبو ، إسهام اللغة العربية في إنماء اللغة السواحلية وتطويرها، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ، الإسلام اليوم ، العدد2 ، السنة2 ، رجب 1404ه/ أبريل 1984م ، ص39 ، محمد جلال عباس ، اللغة السواحلية، مجلة نهضة إفريقيا، العدد25، القاهرة 1959م، ص17-18

حريز، سيد حامد، اللغة السواحلية واللغة العربية، العربية في اللغات الإفريقية، تونس ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1992 ، ص83-84، حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام والعروبة ، م.س ، ص164

وهي لهجة زنجبار التي تغطي أيضا المناطق الداخلية من تترانيا ، ولهجة كنجوانا (Kingwana) وتشمل المناطق الداخلية من شرق إفريقيا حتى أواسط الكونغو[276].

فما هي إذن هذه اللغة وما هي نوعية علاقتها التاريخية باللغة العربية ؟

لقد كثرت الآراء حول أصل اللغة السواحلية وعلاقتها بالعربية، ويرى بعض الباحثين أنها لغة بانتوية دخلتها كثير من الألفاظ العربية وانصهرت فيها ، فيما يرى بعض آخر بأنها ليست سوى صيغة مبسطة للغة العربية تأثرت بلهجات البانتو مع مرور الزمن.

وهناك عدة اطروحات نظرية تلخص جميع الآراء والأفكار المتعلقة بهذه اللغة ، وتتمثل فيما يلي:

1- نشأت اللغة السواحلية نتيجة لاختلاط وتفاعل اللغة العربية بإحدى لغات البانتو التي كانت تستعمل في منخفضات وادي السباكي بكينيا والتي نقلها الناطقون بها إلى المناطق الساحلية التي كانوا يترددون عليها خلال تنقلاتهم ومعاملاتهم مع التجار العرب[277]. ولقد استعمل العرب الذين هاجروا من جنوب الجزيرة العربية والخليج العربي إلى شرق إفريقيا لغة هؤلاء السكان المحليين وغذّوها بكلمات عربية ونتجت عن ذلك اللغة السواحلية. وفي هذا الصدد يرى الدكتور سيد حامد حريز أن هذا الرأي يتوافق مع ما وصل إلينا من معلومات أوردها الرحالة والجغرافيون عن الهجرات العربية إلى ساحل شرق إفريقيا وعن احتكاك العرب بالأفارقة وتزوجهم منهم على حسب ما أورده صاحب كتاب " الدليل الملاحي للبحر الإرتري" . ويقول حريز « ينسجم هذا الرأي مع ما نلاحظه عن وضع اللغة العربية في المنطقة السواحلية إذ نجد أن معظم السواحليين من أصل عربي يتحدثون السواحلية بينما يتحدث العربية نزر يسير منهم[278] » .

2- نشأت اللغة السواحلية نتيجة لاختلاط وتفاعل اللغة العربية بعدّة لهجات من لغة البانتو في عهد العبودية أو بعبارة أدق فإنها تشكلت بصورة اضطرارية أملتها الظروف بسبب تجمع أعداد غفيرة من الرقيق من أصول عرقية مختلفة وذات لغات متباينة لدى العرب والشيرازيين في ساحل شرق إفريقيا . وهو ما يعني أن كل فرد من العبيد والأسياد ساهم في إثراء هذه اللغة من موقعه الاجتماعي، فجاءت المفردات الحضارية والمفردات المعبرة عن السلطة من الأسياد ، بينما أتت العبارات الأساسية الأكثر تداولا

---

[276] بونغاي ، محمد ، اللغة السواحلية نشأتها وتاريخها ، نيروبي 1969م ص13 ، حسن إبراهيم حسن ، انتشار الإسلام والعروبة ، م.س ، ص163 ، Mkoya, Daniel, Kiswahili, Nairobi 1987, p. 7

[277] باتيبو ، م.س، ص40 – 41

[278] حريز، م.س، ص80-81

في الأوساط العادية من العبيد، وبالتالي تكونت هذه اللغة من هذا الاحتكاك ، وليس غريبا في أن يغلب عليها الطابع البانتوي باعتبار أنها كانت لغة تفاهم بين العبيد في الدرجة الأولى[279].

ويعتقد أصحاب هذه النظرية بأن من أسباب الانتشار الواسع لهذه اللغة، ليس في الساحل فحسب، وإنما في عموم شرق إفريقيا أنها لغة جامعة بين اللهجات البانتوية التي انحدر منها العبيد ، بحيث وجدت كل قبيلة كما كبيرا من مفرداتها فاستقبلتها[280]. ويقدر الأستاذ باتيبو عدد اللغات البانتوية التي تنحدر منها السواحلية بثلاثمائة وخمسين لغة أو لهجة، أهمها : كيسوهوما وكيماتروند وكيناويزي في تيزانيا، وكيغاندا في أوغاندا ، وكيكويو وكيكامبا في كينيا ، وكيروندي في برندي، وكينياروواندا في رواندا ، ولينغالا وتشيلبا في زئير، وكيمبا وكيلوموي وكيماهوارا في موزمبيق[281].

ويبدو أنه لا يمكن استبعاد أياً من هاتين النظريتين إذ أنه لا يوجد دليل قاطع يرجح واحدة منهما على الأخرى ، وقد أشرنا إلى وجهة نطر الدكتور سيد حامد حريز المدير في معهد الدراسات الإفريقية والآسوية في جامعة الخرطوم، كما أن رويش أيضا يرجح النظرية الأولى مؤكدا أن الفرس والعرب تزوجوا من نساء البانتو بأعداد كبيرة فتعلم الأطفال من أمهاتهم كلمات البانتو المتعلقة بالزراعة والحيوانات والأطعمة والأشربة وكل مستلزمات الحياة اليومية، بينما تعلموا من آبائهم الكلمات العربية والفارسية التي تدل على الحرب والإبحار والتجارة والرحلات وأدوات الصناعة... إلخ[282].

وفي مقابل ذلك ، هناك من يرى أن التفسير الثاني الذي يرجع نشأة السواحلية إلى عهد العبودية يمثل رأيا مقبولا ومن أبرز أنصار هذا الرأي المؤرخ وعالم الآثار البريطاني استيغاند ، وكذلك برامفيلد[283]. غير أننا إذا أمعنا النظر في هذه اللغة من خلال هيكلها اللغوي وتركيبها النحوي ونظامها الصوتي وجدنا أن الرأي الأول الذي يوحي بأن السواحلية لغة بانتوية تأثرت بالعربية إلى حد كبير ربما يكون هو الأقرب إلى الصواب ، ولعل ما يؤكد ذلك أن العربية لم تؤثر في المفردات الأساسية لهذه اللغة أي في تلك المفاهيم التي ترد في كل لغة من لغات العالم وليس تلك الألفاظ التي تكون مرتبطة بالواقع الثقافي أو محبوسة في معان محدودة. ومن جملة المفردات الأكثر تداولا والتي لا يمكن إلا أن تكون أصيلة في أي لغة في أي مكان من

جمال زكريا قاسم ، العلاقات العربية الإفريقية ، دراسة تاريخية للآثار السلبية للاستعمار ، معهد البحوث والدراسات العربية 1977 ، ص23 . Mkoya, *Op.Cit.* p. 11, Stigand, *Op. Cit.* , p.116

[280] بونغاي ، م.س ، ص18 ، Mkoya, *Op. Cit.* p. 12

[281] باتيبو . م.س ، ص41-42

[282] Reusch , *Op. Cit.* p. 216-217

[283] باتيبو . م.س ، ص40

العالم ما هو مرتبط بأعضاء الجسم ، وما يتصل بالأعداد البسيطة أو التي تطلق على المقومات الطبيعية أو أنشطة الإنسان .

مفردات مرتبطة بأعضاء الجسم :

الكلمة السواحلية	نطق الكلمة بالعربية	معنى الكلمة بالعربية
Kichwa	كِجوا	الرأس
Mgu	مْجو	الرجل
Mkono	مْكونو	اليد
Nyele	نْييلي	الشعر
Mdomo	مْدومو	الفم
Macho	ماجو	العين
Sikiyo	سكِيو	الكبد
Tumbo	تومبو	المعدة

مفردات تتصل بالأعداد البسيطة ك:

الكلمة السواحلية	نطق الكلمة بالعربية	معنى الكلمة بالعربية
Moja	موجا	واحد
Mbli	مْبلِ	اثنين
Tato	تاتو	ثلاثة
Nni	نْني	أربعة
Tano	تانو	خمسة
Kumi	كُمِ	عشرة

مفردات تطلق على المقومات الطبيعية أو على أنشطة الإنسان مثل:

الكلمة السواحلية	نطق الكلمة بالعربية	معنى الكلمة بالعربية
Mto	مْتو	النهر
Mlima	مْلما	الجبل

Mbingu	مْبنغو	السماء
Nchi	نْجي	الأرض
Mawe	ماوى	الصخور
Mchange	مْجانغا	الرمال
Mti	مْتِ	الأشجار
Manyazi	منيازي	العشب
Maji	ماجي	الماء
Kucheka	كوجكا	الضحك
Kulia	كليا	البكاء

وهكذا نلاحظ أن البنية الأساسية لهذه اللغة لم تتأثر بالعربية مما يؤكد أنها كانت لغة قائمة بذاتها قبل احتكاكها باللغة العربية . ولا يعني هذا أن السواحلية لم تستعر بعض المفردات العربية التي تدخل في التركيبة الأساسية لأي لغة كانت . ومن بين الاستعارات البارزة في هذا الميدان نذكر بعض أدوات الوصل مثل :

الكلمة السواحلية	نطق الكلمة بالعربية	معنى الكلمة بالعربية
Ila	إلا	إلا
Kama	كما	كما
Hata	هتى	حتى
Wala	ولا	ولا
Lakini	لكن	لكن
Bila	بلا	بلا
Bado	باد	بعد
Kabli	كبل	قبل

وبعض أدوات الوصل الأخرى، وهو ما دفع البعض إلى القول بأن العربية قد أثرت حتى في البنية اللغوية للسواحلية، وتساءل البعض ماذا كانت تفعل هذه اللغة بدون هذه الكلمات التي لا تستقيم أي لغة إلا بها. ولكن من المحتمل أن السواحلية استعارت هذه الكلمات فضاعت العبارات الأصلية منها بمرور الزمن ، ولا نستغرب ذلك إذ نجد في البيئات التي تتعايش فيها اللغات المحلية مع اللغات الأجنبية اليوم ما يشابه ذلك.

وإذا نظرنا إلى التركيب النحوي فإن قواعد السواحلية كاملة التطابق مع القواعد النحوية لدى جميع اللغات البانتوية، ويقول استايغند في هذا الخصوص : « إن السواحلية نشأت من مجموع لهجات بانتوية ومفردات عربية لكن قواعدها النحوية بانتوية خالصة[284] »، وهو ما يتجلى من خلال المثال التالي :

قيتو هيفي في كبوا في ويهي في مفونجيكا (Vi tu hi vi vi kubwa vi wihi vi mevanjika)

ومعناها (هذا الشيئان الكبيران قد تكسرا). على أن الترجمة الحرفية لتلك الجملة تأتي كالآتي: أشياء هذه كبيرة اثنان مكسرة. وتوجد تراكيب نحوية مماثلة لها في اللغات الإفريقية ، إلا أنها تختلف كل الاختلاف عن الأنماط النحوية في اللغة العربية كما نرى[285].

با لنسبة إلى الصوتيات ، فعندما نتمعن في صلب المفردات السواحلية نجد اختلافا كبيرا بينها وبين اللغة العربية . مثلا هناك عبارات تبدأ بأحرف ساكنة كما هو الشأن بالنسبة إلى اللغات البانتوية الأخرى، وهو ما لا يوجد له مثيل في العربية ، ويقول حسن إبراهيم حسن « إن الحركات التي تنتهي بها كلماتها والحركات التي على ما قبل أواخر الكلمات تجعلها قريبة الشبه في النطق باللغة الإيطالية وليس باللغة العربية ». إلا أن هذا لا ينفي أنّ عدّة أحرف نفذت إلى السواحلية من العربية بأصواتها المختلفة ، وإن كان نطق بعضها صعب على السواحليين كالعين والحاء والقاف ، كما هو الشأن في باقي اللغات البانتوية أيضا. وهذه الأصوات هي حرف « ث » و « غ » وهي قليلة الرواج في اللغات البانتوية إلا أن السواحلية اعتمدتها بعد أن جعلتها تساير أصواتا أخرى مألوفة لديها[286].

وهكذا يمكن القول إن جميع القرائن اللغوية تؤكد أن السواحلية لغة بانتوية بالأساس ، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو إلى أي مدى ساهمت العربية في تطويرها وما هي المجالات التي تبرز فيها بصماتها على نطاق أوسع ؟

تختلف الآراء عن نسبة المفردات العربية في اللغة السواحلية ، ولا يخلو الحديث في هذا الشأن من التعصب أحيانا . وهو أمر يجعل تحديد مدى تأثر السواحلية بالعربية يتفاوت ويتأرجح بين إنكار المنكرين

---

[284] Stigand , *Op.Cit.* p. 116

[285] باتيبو ، م.س ، ص47

[286] باتيبو ، م.س ، ص48

ومبالغة المبالغين ، غير أنه من المؤكد أن التواجد العريق للثقافة والإدارة العربيتين على امتداد الساحل الشرقي لإفريقيا لفترة طويلة أدى بالسواحلية إلى تبني حصة كبيرة من مفردات اللغة العربية. وإذا أخذنا رأي بعض الباحثين المنصفين المهتمين بأمر السواحلية وجدنا أن نسبة المفردات العربية فيها تتراوح ما بين 22,09% و بين 35% . وقد ذكر رويش أنها تتراوح بين الربع والخمس [287]. ويقدر الأستاذ يوسف فضل حسن هذه النسبة بنحو 20 بالمائة في لغة التخاطب ، و30 بالمائة في السواحلية المكتوبة ، و50 بالمائة في لغة الشعر السواحلي القديم [288]، وهو ما يعني أن العربية تغلغلت في مختلف الميادين ، ويظهر ذلك جليا عند الحديث عن المظاهر الحضارية وفي مجال القيم الروحية والدينية ، وفي ذلك يقول جمال زكريا قاسم « وكثير من هذه المفردات كما هو منتظر مصطلحات في الدين وشعائره وفي التجارة والمعاملات وكذلك أسماء الأشياء الحضارية التي أدخلها العرب كالسفن الشراعية والطوابق العليا من المنازل والأواني الصينية المستخدمة في الطعام وغيرها [289] ».

ولاشك في أن القطاع الديني استأثر بالجزء الأعظم من المفردات العربية التي نفذت إلى السواحلية ، حيث نجد أن جميع الألفاظ المتعلقة بأداء الفرائض الدينية عربية الأصل كما في الجدول التالي :

السواحلية	كيفية النطق بالعربية	العربية
Dini	ديني	الدين
Sala	سالا	صلاة
Imani	إماني	إيمان
Ibudu	إبودو	عبادة
Zaka	زاكا	زكاة
Sadaka	سدكا	أضحية
Tubu	توبو	تاب
Tuba	توبا	توبة
Hiji	هجي	الحج

[287] جمال زكريا قاسم ، العلاقات العربية الإفريقية ، م.س، ص24 ، باتيبو ، م.س ، ص42 ، حريز ، اللغة السواحلية ، م.س ، ص83

مركز دراسات الوحدة العربية ، العرب وإفريقيا ، م.س ، ص33

[289] جمال زكريا قاسم ، العلاقات العربية الإفريقية ، م.س، ص24

كما أن الأوقات التي لها علاقة بالشعائر الدينية تحمل أسماء عربية كأوقات الصلاة ، مثلا (Fajiri) بمعنى الفجر، و(Duhuri) أي الظهر و(Asiri)وتعني العصر ...إلخ ، وكذلك الشأن بالنسبة إلى أيام الأسبوع ذات الطابع الديني، كيوم الجمعة (Ijuma) ويوم الخميس (Hamisi) ، بينما تحمل بقية أيام الأسبوع أسماء البانتو مثل لزماموزي (السبت) ولومايلي (الأحد) ولوماتاتو (الاثنين) ولومان (الثلثاء) ولوماتانو (الأربعاء). والعلاقة الوحيدة بين هذه الأسماء والعربية ربما تتمثل في أن كلمة لوما تحريف لكلمة " يوم " العربية.أما الأشهر فشأنها شأن أيام الأسبوع، إذ أن أقدسها في الثقافة السواحلية استعير من العربية كشهر رمضان (Ramadani) وشهر رجب (Rajabu) وشعبان (Shaban).

هذا وتزخر المعاملات الاجتماعية أيضا بمفردات عربية كثيرة ، خاصة في ميادين الثقافة الأسرية وفي العادات والتقاليد العامة، فنجد ألفاظا عديدة تدل على المرافق والتجهيزات المنزلية، وأخرى تصف العلاقات الأسرية ، نذكر منها: السجادة (Msala) والغرفة أو المنزل (Ghorofa) والصحن (Sahan)، وكذلك بنت (Binti) والصديق (Sidiki) والخطيب أو الخطيبة (Katibi) إلى آخره.

غير أن الجانب الأهم الذي تأثر بالعربية بشكل كبير على غرار المجال الديني هو الميدان التجاري ، وذلك أن العلاقات التي نشأت بين سكان ساحل شرق إفريقيا والعرب كانت ترتكز أساسا على المبادلات التجارية ، فتبنت السواحلية جميع المصطلحات التجارية العربية ، بدءاً بالتتابع العددي وانتهاء إلى مفاهيم البيع والشراء [290].

وفيما يلي أمثلة للأعداد الكبيرة المشتقة من العربية :

السواحلية	كيفية النطق بالعربية	العربية
Sita	سيتا	ستة
Saba	سابا	سبعة
Idashara	إيداشرا	إحدى عشر
Thinashara	ثيناشرا	اثنا عشر
Ishrini	إشريني	عشرون

أما في ما يخص مفاهيم البيع والشراء فنجد مثلا:

السواحلية	كيفية النطق بالعربية	العربية
Munda	منادى	بيع بالمزاد العلني

[290] حريز ، اللغةالسواحلية ، م.س ، ص82

Ribih	ربح	فائدة
Khasara	خسارا	خسارة
Nadra	ندرا	نادر (شيء)
Rihani	ريهاني	رهن
Rahisi	رهيسي	رخيص /بخس
Ghali	غالي	غال
Duka	دكا	دكان
Mtajiri	امتجري	تاجر / ثري
Utajiri/Biashira	أتاجري/بياشرا	تجارة
Mali	مالي	مال
Soko	سوكو	سوق
Bia	بيع	ثمن

ويمتد الأثر العربي في اللغة السواحلية إلى الميدان السياسي أيضا، ومن أهم الاستعارات السياسية:

السواحلية	كيفية النطق بالعربية	العربية
Wataifa	وطائف	طائفة/أمة
Hakimi	هكيمي	قاضي
Sharia	شريئا	تشريع
Masaruni	ماساروني	مشاورات
Diwani	ديواني	مستشار بلدي
Waliwali	وليوالي	زعيم
Akida	اكيدا	الحاكم البلدي /عقيد
Wasiasa	وسياسة	السياسة

وهكذا وجدت الكلمات العربية طريقها إلى السواحلية التي تمكنت من استيعابها وفقا لقواعدها ونظمها المرتبطة بالبنية البانتوية . ولقد استطاعت السواحلية توسيع دائرة استعمال بعض هذه الكلمات وإضافة معان جديدة لها، وحين تتصرف السواحلية في الكلمات الوافدة إليها يصبح الفرق شاسعا في بعض الأحيان بين المعنى الأصلي لهذه الكلمات في العربية والمعنى الجديد لها في السواحلية حتى وكأنه لا صلة بينهما ، ونذكر من بين هذه الكلمات ما يلي:

1- Mtajiri (تاجر) وتستعمل غالبا بمعنى الرجل الثري أو الرأسمالي ، وإن كانت تعني أحيانا نفس ما تعنيه بالعربية.

2- Nafasi (نفس) وهي تعني في السواحلية الفرصة أو المتسع من الوقت أو المكان .

3- Waraka(ورقة) وتستعمل في السواحلية بمعنى وثيقة أو شهادة أو عقد وليس كما تعنيه في العربية وبدلا منها تستخدم كلمة Karatasi(قرطاس) بمعنى ورقة.

4- Ghorofa (غرفة) وتعني غالبا الطابق العلوي من البيت .

5- Kabila (قبيلة) وتعني الشخص المهم أو النبيل والأصيل ، وقد صارت تستعمل مؤخرا بمعنى إقطاعي.

وهناك كلمات وعبارات أخرى كثيرة يضيق المجال عن حصرها ، وهي تدل في مجملها على عبقرية اللغة السواحلية ومقدرتها على استيعاب الجديد وتطويره ، مما أعطى الثقافة السواحلية مرونة وديناميكية ميزتها عن أغلب الثقافات الإفريقية الأخرى ، ولعل الجانب الأهم الذي يطلعنا على قدرة هذه اللغة في فرض قواعدها وخصائص تركيبتها على الكلمات الوافدة إليها يحص طريقة التصريف وعملية الجمع .

وإذا أخذنا مثلا كلمة (جاء) سوف نرى أن أصلها العربي يكاد يختفي عند ما تدخل في التصريفات النحوية لهذه اللغة كما يلي :

1-Tume kuja (zamani) بمعنى لقد جئنا (زمان).

2-Sijaja أي لم أحضر ، لم أجيء (بعد).

3- Hajaja (bado) وتعني لم يجيء ، لم يحضر.

و تحليل هذه الكلمات يصبح كالآتي:

اولا: Tume kuja:

ا- Tume بمعنى نحن .

ب- ku كلمة وصل لا معنى لها .

ج- Ja من فعل جاء يجيء .

ثانيا: Sijaja :

ا- Sija من أدواة ضمير المتكلم في حالة النفي .

ب- Ja من فعل جاء يجيء .

ثالثا: Hajaja:

ا- Haja أداة الضمير الغائب في حالة النفي .

ب- Ja من فعل جاء يجيء[291].

وهكذا ، والأمثلة كثيرة ، لا أظن أن القارئ العربي سوف يدرك أن هذه الكلمات تمت بأي صلة إلى العربية ، ناهيك عن كونها من فعل جاء.

وخلاصة القول إن أثر اللغة العربية على اللغة السواحلية كان شاملا وفي كل المجالات ، كما أن السواحلية لم تكن فقط في موقع التلقي المجرد ، ولكنها في كثير من الأحيان كانت تعيد صياغة ما تتلقاه ، وتحور وتبدل تركيبه ومعانيه ، وهو ما وضعها في مكانة متميزة من بين اللغات الإفريقية والعالمية ، حتى أصبحت واحدة من أهم اللغات العالمية الأكثر تداولا في العالم .

هذا ولا يقف فضل العرب على هذه اللغة عند هذا الحد ، وذلك لأن العرب ساهموا مساهمة جبارة في نشرها في مختلف أرجاء شرق إفريقيا ، ويذكر حسن إبراهيم حسن في هذا الخصوص أن التجار العرب حملوا هذه اللغة إلى داخل إفريقيا فنشروها في أوغندا وجنوب السودان وفي حوض الكنغو ونياسالاند ... إلخ ، حتى أصبحت لغة التجارة في المخاطبات بين القبائل في كل أرجاء شرق إفريقيا ، وحلت محل العربية بسبب سهولتها بالنسبة إلى الأفارقة مقارنة باللغة العربية . ولقد عم استعمالها جميع الطبقات في ساحل شرق إفريقيا على وجه الخصوص[292].

وبالنظر إلى أن هذا العمل قام به العرب في أواسط القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين فإننا لن نتعرض إلى تفاصيله حتى لا نخرج عن الموضوع. وفيما يلي موضوع اللغة الصومالية التي لا شك أنها مرتبطة بالعربية إلى حد كبير .

---

[291] حريز ، اللغة السواحلية ، م.س ، ص89 ، بونغاي ، م.س ، ص21

[292] Utrikes Politiska Institutet, Kenya, Stockholm, 1999.p.10-11، حسن إبراهيم حسن ، انتشار الإسلام والعروبة ، م.س ، ص163-164 ، جمال زكريا قاسم ، العلاقات العربية الإفريقية ، م.س ، ص24 ، حريز ، الثقافة السواحلية ، م.س ، ص158-161

المبحث الثاني: مساهمة العربية في تطوير اللغة الصومالية[293]

تأثرت الصومالية بالعربية تأثرا كبيرا لا يقل أهمية عن تأثر السواحلية بهذه اللغة ، إلا أنه لا يوجد وجه مقارنة بين اللغتين السواحلية والصومالية على المستوى التاريخي . فالسواحلية لغة حديثة النشأة أو ظهرت كنتيجة للتلاقح الثقافي في المنطقة ، وكما رأينا فقد اختلف الباحثون في دور العربية في ولادتها، بينما لايوجد جدال في أصالة اللغة الصومالية ، فهي قديمة قدم الصوماليين أنفسهم ، شأنها في ذلك شأن العربية نفسها والأمهرية وجميع اللغات الكوشتية في المنطقة ، وهذا يعني أن تأثرها بالعربية لم يكن سوى تأثرا حضاريا يحدث بين كل اللغات المنفتحة والمتطورة وتلك اللغات الأقل تطورا منها[294].

وهنا نتساءل إلى أي عائلة لغوية تنتمي اللغة الصومالية ؟ وما مدى تعلقها بالعربية باعتبارها لغة ذات حضارة عريقة واكبت الصومالية أكثر من أربعة عشر قرنا ؟

تتضارب الآراء والأفكار حول أصل اللغة الصومالية وانتماءها العائلي ، ولا يخلو تحديد ذلك من التعصب أحيانا والتجرد من الواقعية أحيانا أخرى ، وهناك ثلاث توجهات رئيسة تجمع هذه الآراء كما يلي:

يعتبر الاتجاه الأول أن اللغة الصومالية لهجة من اللهجات العربية المنتشرة في أنحاء العالم العربي، ولكنها على خلاف هذه اللهجات التي تعود في أصولها إلى اللغة العربية الحديثة –أي العدنانية – تنحدر الصومالية من اللغات العربية القديمة التي انقرضت كالمعينية والسبئية والحضرمية ، و يقول الدكتور ممدوح حقي في ذلك : « ولا يزال الصوماليون يستعملون كثيرا من الألفاظ الجنوبية التي عاشت إلى زمن الجاهلية الأخيرة أي إلى حوالي ألفي سنة تقريبا من عهدنا هذا. فالزيت عندهم : "سليط" يذكرنا بقول امرىء القيس (أمال السليط بالذبال المفتل) ... ولو تحرينا معاجمنا القديمة كتاج العروس أو الصحاح مثلا لوجدنا كثيرا من الألفاظ التي يسمونها ميتة هي نفسها ما زالت حية مستعملة في اللغة الصومالية ، إما

---

293 –بالنسبة إلى اللغة الصومالية فقد اعتمدت على إمكانياتي اللغوية وعلى إجراء بعض المقابلات الميدانية مع أشخاص أكاديميين صوماليين ، بينما أجريت الدراسا ت الميدانية بالنسبة إلى اللغات الأخرى، واعتمدت على مترجمين متمكنين من اللغةالصومالية من جهة واللغة العفرية أو الأورومية من جهة إخرى. أما بالنسبة إلى اللغات العربية القديمة فقد اعتمدت على ما أورده ممدود حقي في كتاب المسح الشامل .

294 أحمد محمد أحمد ، الصومال ، دراسات متعمقة في تاريخ الشعب الصومالي ولغته الوطنية ، مقديشو 1981 ص36

بلفظها أو بشيء من التحريف والإبدال[295] » . فالصومالية أذن ، بناء على هذه النظرية ، لغة عربية أصيلة.

وفي مقابل هذا الاتجاه يرى آخرون أن اللغة الصومالية هي من اللغات الأفروآسوية السائدة في الهضبة الإثيوبية وفي أنحاء أخرى من الشرق الإفريقي، وليست لها أية علاقة بالعربية القديمة ، كما أن المفردات العربية الحديثة الموجودة فيها لا تتجاوز 5% وتتركز في مجالات محددة ذات دلالات دينية ، مثلها في ذلك مثل اللغات الفارسية والتركية والأردية التي تحتوي على مفردات عربية كثيرة في مثل هذه الميادين . ومن بين من ذهب إلى هذا المذهب العالم الأمريكي جرينبرغ الذي حاول إيجاد الشبه بينها وبين اللغات المصرية القديمة والبربرية والتشادية والهوسا... وأكد أن الصومالية لغة من اللغات الكوشتية الأفروآسوية التي تضم العفرية والأورمية والساهو والبجة وغيرها، والتي تشبه في بنيتها اللغوية اللغات السامية والحامية[296].

ويبدو أن هذا الرأي الأخير يقلل من أثر العربية في اللغة الصومالية، فيما يبالغ الرأي الآخر في اعتباره للصومالية واحدة من اللهجات العربية الحديثة . وبين هذا وذاك يتوسط رأي آخر أكثر وضوحا واعتدالا، وهو بقدر ما يوفق بين النظريتين بقدر ما ينتقد كلا منهما على حدة ويظهر نقاط ضعف هذا وذاك بصورة موضوعية .

ويرى أصحاب هذا الرأي بأنه من الخطإ وضع الصومالية في خانة اللهجات العربية ، مهما كثرت فيها المفردات العربية، وإن القول بأن أصولها ترجع إلى اللغات العربية القديمة لا يمكن قبوله ، إذ لا يوجد تشابه على الإطلاق بينها وبين أيٍ من هذه اللغات المندثرة ، وهو ما سنلاحظه في الجدول الآتي الذي نقارن فيه الأعداد والضمائر في هذه اللغات –الحضرمية والسبئية والمعينية- بالصومالية من جهة والعربية الحديثة من جهة أخرى .

فلنبدأ أولا بالأعداد:

اللغة الصومالية	اللغة السبئية	اللغة الحضرمية	اللغة المعينية	اللغة العربية الحديثة

---

[295] ممدوح حقي ، الصومال واللغة الصومالية ، المسح الشامل لجمهورية الصومال الديمقراطية ، بغداد ، معهد البحوث والدراسات العربية 1982 ، ص58

[296] Zindiiq, *Op.Cit.* P. 178

كو Kow	–	–	أطو/طت	واحد
لب Labo	-/تني	–	ثنتي	اثنان
سدح Sedax	شلتت/شات/تلات/تلتت	سلصت	شلوت	ثلاثة
أفر Afar	–	–	أربعة	أربعة
شن Shan	–	–	خمسة	خمسة
لح Lix	سدت/شتت	ست/سدثت	سدت/سدثت	ستة
تدبو Todobo	–	–	سبعت	سبعة
سِديد Sideed	ثمني/ثمن	–	ثهمني	ثمانية
سغال Sagaal	–	–	تسعت	تسعة
تبن Toban	–	–	عشرت	عشرة
لباتن Labaatan	–	–	عشرن	عشرون
بقل Boqol	مئيم	ماتم	مات	مائة
كُن Kun	–	–	ألفم	ألف

الضمائر

اللغة الصومالية	اللغة السبئية	اللغة المعينية	اللغة الحضرمية	اللغة العربية الحديثة
إسغا/أسغا Isaga /Asiga	ها/هو/هوت/ذ	ذن	سو/سوت/ذ/ذن	هو
إيد/أيد Iyada/Ayada	هي/هيا/هيت	دت	ذت/ست	هي
أيغَ/إيغ Ayaga/Iyaga	هميت	–	سميت	هما

أيغ/إيغ Ayaga/Iyaga	هوهمت/ألن/أل ت/ألو/ألي	سمت/ذت/أهلت /أهل	سم/سمت/سميت /ذتن/ذتو/ذ	هم
أيغ/إيغ Ayaga/Iyaga	هن/هنت	–	سمت	هن

وهكذا إذا أمعنا النظر في هذا الجدول نقف على الفرق الشاسع بين اللغة الصومالية وهذه اللغات، ناهيك عن كونها تنحدر منها ، مما يؤكد عدم صحة النظرية الأولى ، ولاشك في أن ما استند إليه الدكتور ممدوح حقي في تأكيد موقفه هو من قبيل الاستعارات اللغوية فقط والتي تتم عادة بين كل اللغات المتجاورة كما قلنا .

أما الرأي المقابل والذي يعتبر الصومالية واحدة من اللغات الكوشتية فيكمن تقصيره في أنه يقلل من مساهمة العربية في إثراء هذه اللغة، ولكن، قبل أن نبرهن على هذا التقصير نقارن أولا اللغة الصومالية ببعض اللغات الكوشتية ، لنقف على حقيقة انتماءها إلى هذه اللغات مثلما ذهب إليه جرينبرغ وفريقه ، مع العلم أن ما يميز اللغات الكوشتية هذه هو ذلك التشابه الداخلي بين كثير من مفرداتها ، واشتراكها في بعض الضمائر والأعداد وهو ما سنلحظه في الجداول التالية:

أولا الضمائر :

اللغة الصومالية	اللغة العفرية	لغة الجالا (أرمو)	اللغة العربية
أنِغ Aniga	أنو Annu	أنّا Anna	أنا
أدغ Adiga	أتو Atu	سه Sih	انت
إسغ/أسغ Isaga/Asiga	إسو Issu	إيسا Isa	هو
إيد/أيد Iyada/Ayada	إسي Issi	إيس Isi	هي
أنّغ Annaga	نانو Nanu	نُه Nuh	نحن
إدنك	إسنن Isin	إسن Isin	أنتم

انظر : ممدوح حقي ، م.س ، ص53-54

Idinka			
إدنك Idinka	إسن Isin	إسن Isin	أنتما
إيغ/أيغ Iyaga/Ayaga	أسن Usun	إساو Isaaw	هم
إيغ/أيغ Iyaga/Ayaga	أسن Usun	إساو Isaaw	هما
إيغ/أيغ Iyaga/Ayaga	أسن Usun	إساو Isaaw	هن

ثانيا الأعداد :

الرقم بالصومالية	الرقم بالعفرية	الرقم بالأورمية	الرقم بالعربية
كو Kow	إنك Enek	تكّ Takka	واحد
لب Labo	نمّي Nammay	لمّ Lamma	اثنين
سدح Sedax	سدح Sidoc	سد Sadi	ثلاثة
أفر Afar	فري Farey	أفر Afurr	أربعة
شن Shan	كنوي Konoy	شن Shan	خمسة
لح Lix	لحي Lecey	جههْ Jahah	ستة
تدب Todobo	ملحين Malciin	ترب Tarba	سبعة
سديد Sideed	بحار Bacaar	سديد Sideed	ثمانية
سغال Sagaal	سغال Sagaal	سغل Sagal	تسعة

عشر	Kudhan كطن	Taban تبن	Toban تبن
عشرون	Digdama دغدم	Labaatan لباتن	Labaatan لباتن
ثلاثون	Sodoma سدم	Soddon سدن	Sodon سدن
أربعون	Afurtama أفرتم	Morootom مروتوم	Afartan أفرتن
خمسون	Shantama شنتم	Kontom كنتم	Konton كنتن
ستون	Jahaatan جهاتن	Lactam لختم	Lixdan لخدن
سبعون	Torbaatama ترباتم	ملحنتبن Malcinataban	Todobaatan تدباتن
ثمانون	Sideetama سديتم	Bacrataban بحرتبن	Sideetan سديتن
تسعون	Sagattama سغتّم	Saglataban سغلتبن	Sagaashan سغاشن
مائة	Dhiba طب	Bool بول	Boqol بقل
ألف	Kuma كم	Alfi ألف	Kun كن

وفيما يلي نقدم جدولا نستعرض فيه بعض الكلمات الأساسية فيها التي تشترك الصومالية مع العفرية أوالأورمية أو مع كلتيهما معا :

الكلمة بالصومالية	الكلمة بالعفرية	الكلمة بالأورمية	معنى الكلمة بالعربية
هوي Hooyo	إن Ina	هوي Hooyo	الأم
آب Aabbe	أب Abba	أبو Aboo	الأب
طيغ Dhiig	عبل Qabal	طيغ Dhiig	دم
لف Lafo	لف Lafa	لفى Lafee	العظام
وريا Waryaa	ألي Aleya	وريا Waryaa	يا سيد/يا سيدة
غان Caano	عن Cana	--	لبن
سبغ Subag	سبح Subac	--	الزيت (الدهن)
روب Roob	روب Roob	--	مطر
ملب Malab	ملب Malab	--	عسل
عسب Cusbo	عسب Qusbo	--	ملح
عدر Cudur	عدر Qudur	--	مرض
أف Af	أف Af	--	فم
إنط Indho	إنت Inti	--	الأعين

الملاحظ في هذا الجدول أن هناك تشابها كبيرا بين هذه اللغات من جوانب عدة ، ففي الجانب النحوي مثلا نرى أنه لا يوجد لديها مثنى سواء في المخاطب أو في الغائب ، كما أنها لا تفرق بين الجنسين المذكر والمؤنث في حالة الجمع على سبيل المثال ، هذا فضلا عن أن أغلب ضمائرها تتشابه إلى حد ما . أما ما يتعلق بالأعداد فلا حاجة لنا إلى تعليق ، حيث أن الجدول كاف لإظهار عمق الروابط التي تربط الصومالية بهاتين اللغتين الكوشتيتين ، ولعل الجدول الأخير من هذه الجداول الثلاثة كفيل لتأكيد صحة مذهب من قال بأن الصومالية لغة كوشتية بالدرجة الأولى حتى وإن تأثرت بالعربية إلى حد كبير ، ويعتقد البرفسور غرينبرغ أن اشتراك الصومالية في سماتها الرئيسية مع هذه اللغات يؤكد انتماءها إلى الأسرة الكوشتية من اللغات الأفروآسوية[298]. ومن جهة أخرى تظهر هذه الجداول التباين الكبير بين اللغتين العربية والصومالية، سواء في الأعداد أو في الضمائر أو حتى في المفردات الأساسية المكونة لهذه اللغة أو تلك ، مما يتناقض وما ذهب إليه حقي وجماعته .

ولكن على العموم ، مهما بعدت الصومالية في بنيتها الأساسية عن اللغة العربية لا يمكن إنكار تأثير العربية عليها بشكل كبير، حتى إنك لو أصغيت إلى متحدثين صوماليين يتكلمان بهدوء لتفهم جزءا لا بأس به من حديثهم لكثرة ما فيه من ألفاظ عربية واضحة[299]، وهو ما يؤيد الرأي الذي يذهب إلى أن التقليل من مفرداتها في هذه اللغة إجحاف في حقها .

ولقد أثبتت الأبحاث اللغوية القليلة التي أجريت حول ارتباط الصومالية بالعربية أن مفردات هذه الأخيرة في اللغة الصومالية تتراوح ما بين 23,8% و 33,5% ، وهي نسبة مائوية كبيرة تتجاوز حتى نسبة العربية في اللغة السواحلية ، ويؤكد الأستاذ عبد الملك زنديق أنه لا يوجد مجال في الحياة الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية يخلو من مفردات عربية في اللغة الصومالية، فضلا عن أن كل العبارات الدينية والثقافية عربية أصلا في هذه اللغة[300].

ويرجع الباحثون سبب تأثر الصومالية بالعربية إلى هذا الحد إلى أن الصوماليين كانوا رعاة ورحلا ينتجعون مواطن الكلأ ومساقط المياه، في الفصول المختلفة من السنة ، نتيجة للجفاف المتلاحق عليهم . جعل ذلك الأمر لغتهم بدائية تفتقر إلى كل مقومات الحضارة الإنسانية ، حيث أن لسانهم كان يدور فقط حول الرعي والماء وفصول الأمطار والجفاف . ولما اتصلت بهم الشعوب الأخرى ذات الحضارات المتقدمة وخاصة الشعوب العربية ، وجاء الإسلام إلى المنطقة اقتضت الضرورة أن يتطوروا شيئا فشيئا ، فاعتنقوا الإسلام أولا ثم دخلت إلي لغتهم العبارات الدينية المختلفة ، سواء تلك المتعلقة بالعبادات كالصلوات

---

[298] Zindiiq, Op. Cit. p.178-179

[299] ممدوح حقي ، م.س ، ص58

[300] Zindiiq, Op. Cit .p.182

والصيام أو تلك المرتبطة بالحياة الأسرية والعلاقات الاجتماعية كالزواج والطلاق وغيرهما. ثم تطور الأمر إلى ميادين الاقتصاد والسياسة ، فدخلت المفردات التجارية والمصطلحات السياسية إلى هذه اللغة[301]. ولا شك في أن هذا ينسحب أيضا على جميع اللغات الإفريقية، حيث يقول جيمس دهب نقلا عن الدكتور روبتر (1968) في هذا الصدد « ... أما في حالة الأفارقة الذين اعتنقوا الإسلام بمعطياته ومصطلحاته العلمية التي لا يوجد لها نظير في اللغات الإفريقية فإن ما فعلوه هو أنهم استعاروا هذه المصطلحات وأدخلوها في لغاتهم الإفريقية [302] ».

وقد نفهم من هذا القول بأنه يفترض أن تتساوى نسبة المفردات العربية في كل هذه اللغات الإفريقية بما أنها استعارت من العربية نفس العبارات ، فأبقتها على حالها أو أخضعتها إلى معاييرها اللغوية وخصوصياتها ، وهو ما رأيناه في المبحث السابق مع السواحلية ، ولكن السؤال المطروح هو ما الذي يميز الصومالية عن هذه اللغات حتى تستقبل هذه النسبة المائوية الكبيرة التي تفوق حتى ما استعارته السواحلية التي يعتبرها البعض صيغة مبسطة للعربية ؟

منذ أن سيطر الاستعمار الأوروبي على القارة الإفريقية وفرض ثقافته عليها هيمنت لغاته المختلفة على جميع أنحائها ، وحين استقلت بلدان القارة تبنت أغلبها لغات الدول المستعمرة لها كلغة إدارية ورسمية، فاستمرت هيمنتها عليها ، وتحولت أغلب اللغات المحلية إلى لهجات غير مكتوبة أو لغات مكتوبة لكنها لا تفي بمتطلبات الحياة العصرية من مصطلحات علمية وتقنية مما جعلها تستلف هذه المصطلحات من اللغات الأوروبية المهيمنة في أنحاء القارة ، فأصبحت المفردات الإنجليزية تغلب عليها هنا وهناك والفرنسية هنا وهناك ... إلى آخره ، إضافة إلى أن الكلمات العربية في هذه اللغات واجهت محاربة شديدة من قبل بعض المستشرقين الذين حاولوا استبدالها بكلمات أخرى من لغاتهم أو من اللغات المحلية ، مما جعل حجم الكلمات العربية تتقلص في هذه اللغات ، أما في حالة اللغة الصومالية فإن الأمر يختلف عن ذلك تماما ، وذلك لأن الصومال التي استعمرتها ثلاث دول وهي بريطانيا وفرنسا وإيطاليا في آن واحد لم تتبنّ أي لغة أجنبية كلغة رسمية ، وإنما أصبحت اللغة الصومالية لغة التعليم والإدارة في البلاد منذ أن كتبت بالحرف اللاتيني ، فضلا عن أن المستشرقين فشلوا في نشر عقيدتهم في الصومال ناهيك عن تأثيرهم في اللغة الصومالية لأنها لا تختلف عن باقي اللغات الإفريقية في حاجتها إلى مصطلحات عصرية لجأت الصومالية

[301] Zindiiq , Op.Cit. p.183

[302] جيمس دهب: العلاقة بين الثقافة العربية والإفريقية، بحث قدم في ندوة العلاقات العربية الإفريقية، الخرطوم، فيفري1981م، ص212

إلى العربية مرة أخرى لتستلف منها ما يتناسب والحياة العصرية من المصطلحات والعبارات العلمية والفنية المستجدة على الساحة الدولية[303].

ومن هنا جاء دور العربية في الحياة العصرية الصومالية فأصبح تأثيرها على اللغة الصومالية مضاعفا ، تأثير قديم شمل جميع اللغات الإفريقية وتأثير حديث يخص الصومالية وحدها . وهو ما يبرر القول بأن هذه اللغة تأثرت بالعربية أكثر من أي لغة إفريقية أخرى . ويتكهن الدكتور ممدوح حقي الذي يعتبر الصومالية من أقدم اللهجات العربية بأن الصومالية ستتحول مع الزمن إلى لغة عربية صافية[304]، وهو كلام -وإن كان مبالغ فيه- يدل على مدى تغلغل العربية في اللغة الصومالية .

وفيما يلي جداول توضح مدى هذا التغلغل في جميع النواحي في اللغة الصومالية كما ذكرنا . ولكن قبل أن نقدم ذلك نشير هنا إلى أننا نتجنب تكرار ما قدمناه من المفردات أو العبارات في المبحث السابق ، باعتبار أن كلتا اللغتين السواحلية والصومالية استعارتا في كثير من الأحوال نفس الكلمات من العربية وهو ما سنقارنه لاحقا في جدول مخصص لذلك.

أسماء الأدوات المنزلية :

اللغة الصومالية	كيفية النطق باللغة الصومالية	اللغة العربية
Sariir	سرير	سرير
Kursi	كرس	كرسي
Thallaajo/tallaajo	ثلاج/تلاج	ثلاجة
Mismaar	مسمار	مسمار
Minsh[305]ar/Miinshaar	منشار/مينشار	منشار
Midi/Mindi	مدي/مندي	مدية
Maq[306]as	مقص	مقص
Sakiin/Saakiin	سكين/ساكين	سكين

---

[303] أحمد محمد أحمد ، م.س ، Zindiiq, Op. Cit. p.185

[304] ممدوح حقي ، م.س ، ص60

[305] حرفي " SH " في اللغة الصومالية يعنيان معا حرف " ش " بالعربية

[306] حرف " Q " يعني في اللغة الصومالية حرف "ق "بالعربية

Mukeyf	مكيف	مكيف
Koob	كوب	كوب
Sanduuq	سندوق	صندوق

الملابس والأدوات الملحقة بها :

اللغة الصومالية	كيفية النطق باللغة الصومالية	اللغة العربية
Saac[307]ad	ساعت/ساعد	ساعة
Libis	لبس	لبس
Qamiis	قميس	قميص
Thallat/Dallad	ظلت/دلد	مظلة
Shandad	شندت	شنطة
Cimaamad	عمامت	عمامة
Masawir/Sawir	مسور/سور	مصور/صورة
Jeeb	جيب	جيب
Dahab	دهب	ذهب
Tusbiix[308]	تسبيح	مسبحة

الشؤون الاجتماعية العامة :

اللغة الصومالية	كيفية النطق بالصومالية	اللغة العربية
Xaal	حال	الحال (التي يكون عليها الشخص)
Mashaakil	مشاكل	مشاكل
Zowjka/Sowjka	زوجك	الزوج
Zowjada/Sowjada	زوجد	الزوجة

307 حرف " C " يعني في اللغة الصومالية حرف " ع " بالعربية

308 حرف " X " يعني في الصومالية حرف " ح " بالعربية

Nikaax	نكاح	نكاح
Mariil	مريل	مريض
Duruuf	دروف	ظروف (الحالة التي يمر بها الشخص)
Farax	فرح	فرحة
Kh[309]ushuuc	خشوع	خشوع
Dulli	دل	ذل

عموم الشؤون السياسية والعسكرية :

اللغة الصومالية	كيفية النطق في اللغة الصومالية	اللغة العربية
Dibulumaasid	دبلوماسيد	ديبلوماسية
Qunsuliyad	قنسليد	قنصلية
Safaarat	سفارت	سفارة
Askar	أسكر	عسكر
Waziir	وزير	وزير
Jaaliyad	جاليد	جالية
Raizulwazaare	رئز الوزار	رئيس الوزراء
Xukuumadda	حكومد	الحكومة
Qaanuun/Sharci	قانون/شرع	قانون/ شرع
Quwad	قود	قوة

هكذا يمكن القول بأن الصومالية استعارت العديد والعديد من الكلمات والعبارات العربية ، وهي من أكثر اللغات الإفريقية تأثرا بها حتى اليوم ، وليس هناك مجال في هذه اللغة لم تتوغل العربية -كما قلنا- فيه سواء في المجال الثقافي أو الاجتماعي أو الاقتصادي أو السياسي .

وهنا لابد من الإشارة إلى أن سر استيعاب الصومالية لهذا الكم الكبير من المفردات العربية يكمن في مرونتها وقدرتها على تكييف ما يفد عليها ليتماشى مع قواعدها وخصوصيتها ، وهي في أبسط الحالات تبقى الكلمة على حالها عند النكرة بينما تُضيف إليها حرف Da أو Ka أو Ha في حالة التعريف.

فلنأخذ أمثلة لذلك :

[309] حرفي " KH " يعنيان معا في اللغة الصومالية حرف " خ " بالعربية

Kitaab يبقى كم هو دون تغيير يتغير فيصبح Kitaabka بإضافة حر كاف"	كتاب: في حالة النكرة الكتاب: في حالة التعريف
يصبح Saxe دون إضافة حرف آخر يضاف إليه حرف "الها" فيصبح Saxaha	مصحح (الذي يقوم بتصحيح خطأ ما): في حالة النكرة المصحح: في حالة التعريف
تبقى كما هي Maktabat تصبح Maktabaddan بإضافة حرف "د"	مكتبة: في حالة النكرة المكتبة: في حالة التعريف

وفي الحالات المعقدة تتبدل مواضع الحروف في الكلمة نفسها تبدلا يكاد يخفي أصلها العربي مثلما رأيناه مع اللغة السواحلية ، فمثلا كلمة "نافع" تأتي في اللغة الصومالية "فيعن" (Fiican) وهي تبدو كما هو ملحوظ دون أدنى علاقة بالعربية ناهيك عن كونها من كلمة نافع ، وهو ما ينطبق على كلمة "هبوط" أيضا التي تصبح في الصومالية "هوبت" أو "هوبط" بتقديم الباء على الواو أو "هوبش" (Hoobat أو Hoobadh[310] أو Hoobasho) عند التصريف ، وهكذا إلى ما لا نهاية .

وعموما ، فإنك إذا أمعنت النظر في اللغة الصومالية ترى أنها تشبعت بالعربية إلى حد بعيد ، ولكن ذلك لا يضعها في واقع الأمر في صف اللهجات العربية الحديثة أو القديمة . إلاّ أن المفارقة العجيبة هنا هي أن الصومالية كتبت مع ذلك بالحرف اللاتيني ، وهو أمر يدعو إلى الدهشة في الحقيقة إذ أن الصواب كان أن تكتب بالحرف العربي باعتبارها تحتوي على كثير من مفرداته وتشترك معه في أحرف كثيرة لا تتوفر في اللغة اللاتينية ، مثل "ح" "خ" "ط" ... إلخ ، ولعل ذلك ينطبق أيضا على اللغة السواحلية التي كتبت بالحرف اللاتيني مؤخرا .

وهكذا ، وفي خلاصة هذا الفصل عن اللغتين الصومالية والسواحلية نذكر أن علاقتهما بالعربية كانت وثيقة وعميقة الجذور ، وأن مؤثرات هذه الأخيرة على هاتين اللغتين كانت شاملة في مختلف الميادين . وفيما يلي مزيد من المفردات العربية التي دخلت في هاتين اللغتين :

الصومالية	اللغة بالصومالية	النطق بالسواحلية	السواحية	العربية
		Thinashara	ثيناشرا	اثنا عشر
Isniin	إسنين			اثنين

[310] حرفي "DH" يعنيان معا في اللغة الصومالية حرف "ط" بالعربية

Axad	أحد			أحد
		Idashara	إيداشرا	إحدى عشر
Aakhiro	آخر	Ahira	آهر	آخرة
Arbaco	أربع			أربعاء
Islaan	إسلام	Islam	إسلام	إسلام
Utxiyo	أتحي			أضحية
		Ila	إلا	إلا
		Kula	كل	أكل
Ilaah	إلاه	Allah	الله	الله
Imaam	إمام	Imamu	إمامو	إمام
Ihaano	إهان			إهانة
Iimaan	إيمان	Imani	إماني	إيمان
Baas	باس			بأس
Barko	برك	Baraka	بركا	بركة
Ka bacdi	كبعد	Bado	بدُ	بعد
Basal	بسل			بصل
		Bila	بلا	بلا
Beec	بيع	Bia	بيا	بيع
Taajir	تاجر	Mtajiri	امتجري	تاجر
Taariikh	تاريخ	Tarihi	تاريهي	تاريخ
		Utajiri	أتاجري	تجارة
		Sharia	شريئا	شريعة
Tafsiir	تفسير	Tafsiri	تفسيري	تفسير
Towbo	توب	Tuba	توبا	توبة

[311] هذه الكلمة تعني في السواحلية ثمن أو سعر السلعة

[312] تعني هذه الكلمة في اللغتين العربية والصومالية الشخص الثري

[313] وبدلا من هذه الكلمة تستعمل غالبا كلمة بياشرا biashira (بيع وشراء)

Tallaajad	تلاجت			ثلاجة
Towrat	تورت			ثورة
Jaaliyad	جاليد			جالية
Jaamacat	جامعت	Jamia	جامأ	جامعة
Jimco	جمعُ	Ijuma	إجمأ	جمعة
Jinno	جنُ			جنة
Jeeb	جيب			جيب
Xaal	حال	Hali	هال	حال
Xataa	حتى	Hata	هتى	حتى
Xaj/Xij	حَج/حِج	Hiji	هجي	حج
Xaaraan	حاران	Haramu	هرامو	حرام
Xaasid	حاسد	Hasidi	هاسدي	حاسد
Xukuumat	حكومت	Hukumi	هكومي	حكومة
		Hakimi	هكيمي	حكيم
Xalaal	حلال	Halali	هلال	حلال
Khabiir	خبير	Habiri	هبير	خبير
Khasaaro	خسارُ	Khasara	خسارا	خسارة
Khushuuc	خشوع			خشوع
Khamro	خمرُ			خمر
Khamiis	خميس	Alhamisi	الهميس	خميس
Kheyr	خير	Heri	هير	خير
Dibulumaasi	دبلوماس	Diblumasi	دبلوماس	دبلوماسي
Dacwo	دعوُ	Ashtaki	أشتك	دعوة
Dafdar/Daftar	دفدر/دفتر	Daftari	دفتر	دفتر
Dukaan	دكان	Duka	دكا	دكان

[314] وتعني في اللغة الصومالية الشكوى ضد أي شخص كان ، وفي السواحلية يستخدمون كلمة " Ashtaka" بدلا من كلمة الدعوة لدى الصومالية

Daawo	داوُ	Dawa	داوا	دواء
Dowlad	دولد			دولة
Deyn	دَين	Deni	دين	دَين
Diin	دِين	Dini	ديني	دِين
Diiwaan	ديوان	Diwani	ديواني	ديوان
Dulli	دل			ذل
Dimbi	دمبِ	Dhambi	طمب	ذنب
Dahab	دهب	Dahabu	دهب	ذهب
Raizulwazaare	رئزالوزارِ	Waziri Mkuu	وزير مْكو	رئيس الوزراء
Ribo	رِبُ	Riba	ربا	ربا
Ribix	ربح	Ribih	ربه	ربح
Rakhiis/Raqiis	رخيس/رقيس	Rahisi	رهيسي	رخيص
Rizqi	رزقِ	Riziki	رزك	رزق
Ramadaan	رمدان	Ramadani	رمدان	رمضان
Rahan	رهن	Rihani	ريهاني	رهن
Zeko	زكُ	Zaka	زاكا	زكاة
Zino	زنُ	Zina	زنا	زنا
Siyaaro	سيارُ	Ziara	زيار	زيارة
Saacad	ساعت	Saa	ساءَ	ساعة
Sabab	سبب	Sababu	سبب	سبب
Sibdi	سبد			سبت
		Saba	سابا	سبعة
		Sita	سيتا	ستة
Sujuud	سجود	Sujudu	سجود	سجود
Sariir	سرير			سرير

[315] هذه الكلمة تعني في السواحلية المستشار البلدي

سفارة			سفارت	Safaarat
سكر	سكِر	Sukari	سكر	Sokor
سكين			سكين	Sakiin
سلام	سلام	Salamu	سلان	Salaan
سماء			سمُ	Samo
سوق	سوكو	Soko	سوق	Suuq
سياسة	سياسا	Siasa	سياست	Siyaasat
شاي	شاءِ	Chai	شاه	Shaah
شخص			شخس	Shakhsi
شر	شر	Shari	شر	Shar
شرع			شرعِ	Sharci
شريعة	شريء	Sharia	شريعُ	Shareeco
شهادة	شهاد	Shahada	شهادُ	Shahaado
شيخ			شيخ	Shiikh
شيطان	شيدان	Shedani	شيدان	Sheydaan
صابون	سابون	Sabuni	سابون	Saabuun
صبح	اسبء	Asubui	سبح	Subax
صدقة	سدكا	Sadaka	سدقُ	Sadaqo
صلاة	سالا	Sala	سلات	Salaat
صندوق	سندك	Sanduku	سندوق	Sanduuq
صنم	سنم	Sanamu	سنم	Sanam
صوم	سأم	Saumu	سون	Soon
ضد			لد	Lid
ضعيف	زئيف/دئيف	Zaif/Daif	دعيف	Daciif
طاعة			داعت	Daacat

316 وتعني هذه الكلمة في اللغة السواحلية الأضحية

317 وتعين هذه الكلمة لدى الصوماليين الوفاء.

طائفة	تائفا	Taifa		
ظروف			دروف	Duruuf
ظهر	الطهر	Adhuhuri	دهر	Duhur
عادة			عادُ	Caado
عبادة	أبودو	Abudu	عبادُ	Cibaado
عدة			عدُّ	Cuddo
عسكر	أسكر	Askari	أسكر	Askar
عشرين	إشريني	Ishrini		
عصر	الأسري	Alasiri	عسِر	Casir
عصري			عسرِ	Casri
عقيد	أكيد	Akid		
عقيدة	أكيدا	Akida	عقيدُ	Caqiido
عقل	أكل	Akili	أقلِ	Aqli
علة			علّ	Cillo
عَلَم			علن	Calan
علِم	إلم	Ilimu	علمِ	Cilmi
عمامة			عمامت	Cimaamat
عيب	أيب	Aibu	عيب	Ceeb
غال	غالي	Ghali	قال	Qaali
غرفة	غرفا	Ghorofa		
فائدة	فائد	Faida	فيِعن	Faaiido
فتنة	فتنا	Fitina	فتنُ	Fitno
فرقة			فرقُ	Firqo
فهم	فهم	Fahamu	فهَم	Faham
قاض	كط	Kadhi	قالِ	Qaali

[318] وتعني هذه الكلمة للسواحليين الحاكم البلدي

Qaanun	قانون	Kanuni	كانون	قانون
Qabri	قبر	Kaburi	كبر	قبر
		Kabli	كبلِ	قبل
Qabiilo	قبيلُ	Kabila	كبيلع	قبيلة
Qunful	قنفل	Kufuli	كفلِ	قفل
Qalin	قَلن	Kalamn	كلمن	قلم
Qunsul	قنسل			قنصل
Quwo	قوُ			قوة
		Kafiri	كافر	كافر
Kitaab	كتاب	Kitabu	كتابُ	كتاب
Kursi	كرسِ			كرسي
Kulli	كلِ			كل
Kalimo	كلمُ	Kalima	كلم	كلمة
		Kama	كما	كما
				كفارة
Koob	كوب			كوب
Libis	لبس			لبس
Lijaam	لجام			لجام
Laakin	لاكن	Lakini	لكنِ	لكن
Maal	مال	Mali	مالي	مال
Midi	مدِ			مدية
Mustaqbal	مستقبل	Istikbali	إستكبل	مستقبل
Mismaar	مسمار	Musmari	مسمار	مسمار
Mashaakil	مشاكل			مشاكل
		Masharuni	ماشاروني	مشاورات

[319] وهذه الكلمة تعني عند الصوماليين نفس ما تعنيه في اللغة العربية بينما تعني في اللغة السواحلية الرجل النبيل أو الأصيل

مصلحة			مسلحُ	Maslaxo
مصور			مسور	Masawir
مصيبة	مْسيبء	Msibai	مسيبُ	Musiibo
مظلة			دِلّ	Dilli
معصية			معسيُ	Macsiyo
معلم	مْولمو	Mwalimu	معلن	Macalin
مغرب	المغرب	Almagribi	مقرب	Maqrib
مقص	مكس	Makasi	مقس	Maqas
مكتبة	مكتب	Maktaba	مكتبُ	Maktabo
مكيف			مكيف	Mukeyf
منادى	منادى	Munada		
منافق	مْنافك	Mnafiki	منافق	Munaafiq
منشار			مينشار	Miinshaar
مني	شهو	Shahawa	مَنِ	Mani
مهندس	مهندس	Muhandisi	مهندس	Muhandis
نادر	ندرا	Nadra	نادر	Naadir
نداء			ناد	Naado
نَفَس	نفسِ	Nafasi	نفس	Nafas
نصيب	نسيب	Nasibu	نسيب	Nasiib
نعمة	نم	Nema	نعم	Nicmo
نكاح	نكاه	Nikah	نكاح	Nikaax
نور	نور	Nuru	نور	Nuur
نية	نيا	Nia	ني	Niyo
والي	والي	Wali		
ورقة	وركا	Waraka	ورقد	Warqad

[320] وتعني في السواحلية البيع بالمزاد

وزير	وزيري	Waziri	وزير	Waziir
وقت	وكت	Wakati	وقت	Waqti
ولا	ولا	Wala		
هبة			هب	Hibo
هدية			هدي	Hadiyo
هيبة			هيبد	Heybad

الخـــــــاتمـــة

وفي خاتمة هذا البحث المتواضع لا يسعني هنا إلاّ أن ألخّص أهمّ ما يستخلص من هذه الدراسة من نتائج:

1- لقد ساهم ساحل شرق إفريقيا بصورة فعّالة في تطوّر الحضارة الإنسانيّة،-سواء منها تلك القديمة كالحضارة الفرعونيّة ، أو تلك التي جاءت بعدها، وكانت آخرها الحضارة الإسلاميّة-،. ولعلّ اتّصال سكّان هذا الساحل بالحضارة الفرعونيّة تحديدا قد أدّى إلى جعل أهل هذه المنطقة مِضيافين ، لا متوحّشين كما يزعم ذلك البعض .

2- اتّضح من خلال هذا البحث أن الأثر الفارسي على ساحل شرق إفريقيا لم يكن أقلّ شئنا من الأثر العربي على المنطقة ، رغم أنّ أغلب الباحثين العرب يتجاهلون ذلك دوما ، بل ويمكن القول إن الفرس كانوا أكثر نجاحا من العرب في منطقة ساحل شرق إفريقيا على المستوى السياسي ، ممّا مكّنهم من الإحتفاظ بالسيادة في دولة الزنج طوال خمسة قرون ، وذلك بخلاف الدويلات العربيّة التي كانت تظهر هنا وهناك ثمّ تقضي عليها الخلافات والمنازعات التي تقع بين أفراد ها في غالب الأحوال . وإنّ الثقافة ليست معيارا لمعرفة مدى أثر هذه الجالية أو تلك على المنطقة باعتبار أنّ الثقافة العربيّة الإسلاميّة كانت قاسم مشترك بين الجاليتين حيث كانت كل الأطراف تعمل على ترسيخها في المنطقة . ولعلّ الإسم الذي أطلق على الساحل – زنجبار أو ساحل الزنج – خير تأكيد على عمق الأثر الفارسي في المنطقة ، فالإسم الأوّل فارسيّ خالص والإسم الثاني فارسيّ النصف .

3- لم يقم جل المسلمين العرب والفرس بواجباتهم الدّينيّة في إبلاغ الرّسالة المحمديّة إلى سكان ساحل شرق إفريقيا الأصليين مقارنة بنظرائهم في شمال إفريقيا ولكنّهم بعدما تغلّب البرتغاليون عليهم ودمّروا مدنهم بذلوا ما بوسعهم في أداء هذا الواجب ولو أنّهم فعلوا ذلك قبل هذا الوقت لتحوّل كل شرق إفريقيا إلى الإسلام ، ويبدو أن تجارة العبيد كانت السبب في تباطئ العرب والمسلمين في نشر الإسلام في ساحل شرق إفريقيا .

4- أفرز الحضور العربي والفارسي في ساحل شرق إفريقيا طوال قرون ظاهرة اللغة الساحليّة التي هي مزيج من الذي أتى به العرب والمسلمون الفرس والذي كان ملكا خالصا للإفريقيين ومن توافد على الساحل من العناصر الأخرى . كما أنّ اللغة الصوماليّة أخذت

نصيبها من التأثُّر باللغة العربيّة والاستفادة من ثرائها الحضاري ، ولا شكّ في أنّ الجداول البيانيّة — أعلاه — قد كشفت لنا مدى عمق تغلغل العربيّة في هاتين اللغتين .

وأخيرا ، أعترف أنّ هذه الدراسة لاتعدُّ أكثر من بادرة بسيطة منّي كباحث مبتدئ لم يكتسب بعد أساسيات البحث العلمي ، وأعد اللجنة المناقشة وأستاذي المشرف بأنّني سأعمل بتوجيهاتهم وملاحظاتهم القويمة .

فهـــرس المصادر والمراجع

I- المصادر

1- القران الكريم .

2- إبن الأثير أبي الحسن علي بن أبي الكرم، *الكامل في التاريخ*، ، دار الكتاب العربي 1983 ، ط4.

3- الإدريسي ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريسي الحمودي ، *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق*، بيروت، (د.ت).

4- أبو الفداء عماد الدين إسماعيل ، *المختصر في تاريخ البشر*، الحسينية المصرية (د.ت)

5- إبن بطوطة، *تحفة النظارات في غرائب وعجائب الأسفار* تحقيق وتقديم علي المنتصر الكتاني بيروت ، مؤسسة الرحالة للطباعة والنشر والتوزيع ، 1985 .

6- الحموي، ياقوت شهاب الدين أبو عبد الله، *معجم البلدان*، بيروت، دار إحياء التراث (د.ت).

7- إبن خلدون ، العلامة عبد الرحمن بن محمد، *مقدمة بن خلدون*، بيروت ، دار الجيل، (د.ت).

8- السقلاني، شهاب الدين أحمد بن حجر، *الدار الكامنة في أعيان المائة الثامنة* ، ج 3 تحقيق محمد سيد جاد الحكم ، القاهرة ، 1966.

9- الطبري أبو جعفر محمد بن جرير، *تاريخ الأمم والملوك* ، القاهرة، دار المعارف، 1961.

10- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، *مروج الذهب ومعادن الجوهر*، دار الكتاب اللبناني، (د.ت).

11- المقريزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي، *المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط و الاثار*، المعروف بالخطط المقريزية، بيروت، دار صادر، (د.ت).

12- إبن هشام ، *السيرة النبوية* ، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأنباري وعبد الحفيظ شلبي، بيروت ، دار المعرفة ، (د.ت) المجلد الأول.

II- المراجع

أ- باللغة العربية :

1- أحمد علي ، *ثورة الزيج وقائدها علي بن محمد* ، بيروت، 1960.

2- أحمد محمد أحمد ، *الصومال دراسة متعمقة في تاريخ الشعب الصومالي ولغته الوطنية* ، مقديشو ، 1981.

3- أرنولد سيرتوماس، *الدعوة إلى الإسلام*، ترجمة وتعليق حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عبدين وإسماعيل النحراوي، القاهرة مكتبة النهضة المصرية، ط 3 ، 1970.

4- أمين محمد محمد، الصومال في العصور الوسطى الإسلامية، *المسح الشامل لجمهورية الصومال الديمقراطية* – معهد البحوث والدراسات العربية ، 1982.

5- م. د .باتيبو، *إسهام اللغة العربية في إنماء اللغة السواحلية وتطويرها*، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، الإسلام اليوم، العدد 2 السنة 2 رجب 1404 هـ/أفريل 1984.

6- بونغاي، محمد، *اللغة السواحلية نشأتها وتاريخها*، نيروبي، 1969.

7- – ترمنجهام سبنسر، *الإسلام في شرق إفريقيا*، ترجمة وتعليق محمد عاطف النواوى، مراجعة فؤاد محمد شبل، القاهرة، مكتبة الإنجلو مصرية، 1973.

8- جمال زكريا قاسم، استقرار العرب في ساحل شرق إفريقيا، *حوليات كلية الآداب*، جامعة عين شمس، المجلد العاشر، 1967.

9- نفس المؤلف ، *الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية*، معهد البحوث والدراسات العر .1975

10-نفس المؤلف ، *العلاقات العربية الإفريقيّة*، رواية تاريخية للعلاقات العربية الإفريقية ، ;نس المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم 1992.

11-نفس المؤلف ، *العلاقات العربية الإفريقية، دراسة تاريخية للآثار السلبية للاستعما*، معهد البحوث والدراسات العربية، 1977.

12-نفس المؤلف ، *أثر الاستعمار الأوروبي في تفكيك الروابط بين الخليج العربي وشرق إفريقيا*، إتحاد المؤرّخين العرب، لجنة تدوين تاريخ قطر، الدوحة قطر، 1976.

13-الجمل شوقي ، *تاريخ كشف إفريقيا وإستعمارها*، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، 1971.

14-جوليان شارل أندرية، *تاريخ إفريقيا*، ترجمة طلعت عوضي أباظة ، مراجعة عبد المنعم ماجد، القاهرة ، دار نهضة مصر، 1968.

15- جي. كيركمان، *التاريخ المبكر لعمان الإسلامية في شرق إفريقيا*، حصاد ندوة الدراسات العمانية، وزارة التراث القومي الثقافة المجلد الخامس ، سلطنة عمان، نوفمبر 1980 ،ط2.

16-جيمس دهب، *العلاقات بين الثقافة العربية والإفريقية*، بحث قدم في ندوة العلاقات العربية الإفريقية ، الخرطوم، فيفري 1981.

17-الحجري ، عامر ، *تاريخ العلاقات العمانية الإفريقية ، بداية التواجد العربي في شرق إفريقيا قبل الإسلام* ، اتحاد المؤرخين العرب ، لجنة تدوين تاريخ قطر، 1976م .

18-حريز، سيد حامد، *الثقافة السواحلية، أصولها وخصوصياتها*، العلاقة بين الثقافة العربية والثقافة الإفريقية، تونس، المنظمة العربية للتربية والعلوم 1985.

19-نفس المؤلف ، *اللغة السواحلية واللغة العربية*، العربية في اللغات الإفريقية، تونس ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم 1992.

20- حسن إبراهيم حسن، *انتشار الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى شرقي القارة الافريقية و غربها* ، القاهرة ، معهد الدراسات العربية العالمية ، 1957.

21-نفس المؤلف ، *تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي*، بيروت، دار الجيل، لقاهرة ، مكتبة النهضة المصريّة، 1991، ط 13.

22- حسن أحمد محمود، *الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا* ، القاهرة ، دار الفكر العربي، 1986 ط3.

23-حمدي السيد سالم، *الصومال قديما وحديثا*، مقديشو، 1965.

24-الحويري، محمود محمد، *ساحل شرق إفريقيا من فجر الإسلام حتى الغزو البرتغالي*، القاهرة دار المعارف ، 1986.

25-دافيدسون بازل ، *إفريقيا تحت أضواء جديدة*، ترجمة جمال م. أحمد، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ت).

26-صلاح العقاد وجمال زكريا قاسم، *زنجبار*، القاهرة 1959.

27-صوار أحمد، *الصومال*، القاهرة 1959.

28-الطحاوي عنايات، إفريقيا الإسلامية، الكتاب التاسع والخمسون، *الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي*، طبعة لجنة التعريف بالإسلام، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية – الجمهورية العربية المتحدة، 1970 المجلد الأول.

29-عبد الرحمن زكي، الإسلام والحضارة الإسلامية في شرق إفريقيا، *المجلة التاريخية المصرّية*، المجلد 21، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، 1974.

30-نفس المؤلف ، *إفريقيا الإسلامية*، القاهرة 1958.

31-عبد القادر شيخ عبد الله ، *تاريخ التعليم في الصومال مقديشو*، 1978.

32-عبد الله نجيب، *مصطلحات سواحلية في ضوء العلاقات الاجتماعية*، معهد البحوث والدراسات العربية، 1987.

33-العراقي السر سيد أحمد، الإسلام ومراكز الثقافة الإسلامية في أثيوبيا والصومال، *ندوة العلماء الأفارقة ومساهمتهم في الحضارة العربية الإسلامية*، بغداد ، معهد البحوث والدراسات العربيّة 1985.

34-مالكي، سليمان عبد الغني مالكي، *سلطنة كلوة الإسلامية* ، القاهرة، دار النهضة العربية، 1986.

35-مركز دراسات العالم الإسلامي، *التعاون العربي الإفريقي للواقع الراهن وآفاق المستقبل*، سلسلة الدراسات السياسية والاستراتيجية ،مالطا ، 1992.

36-مركز دراسات الوحدة العربية ، *العرب وإفريقيا*، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية بالتعاون مع منتدى الفكر العربي، ، بيروت 1987 ط 2.

37-المغيري سعيد بن علي، *جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار*، تحقيق علي الصليبي، عمان ، وزارة التراث القومي والثقافة، ، ط 3 ، 1986.

38-مكاوي فوزي، الصومال في العصور القديمة، ضمن كتاب : *المسح الشامل* المذكور أعلاه.

39- ممدوح حقي، الصومال واللغة الصوماليّة، ضمن كتاب: *المسح الشامل*.

ب- بغير العربية (الانقليزية، السواحلية، السويدية، الصومالية) :

1- Bartholomew (J) and Limited (S), The times atlas of world, times books limited, London, 1985.
2- Chittick (N), Kilwa an Islamic trading City on the east African coast, Kenya, litho L.T.D. Nairobi, 1974, volume I.
3- Freeman (G), The medieval history of the coast of Tanganyika, akademie-verlag, Berlin, 1962.
4- Same author, The East African coast select documents form the first to the earlier nineteenth century, Clarendon press, Oxford, 1962.
5- Gray (J), History of Zanzibar from the middle ages to 1856, Oxford University Press, London, 1962.
6- Hatch (J), Tanzania, New York, 1972.
7- Hichens (W), Islam in East Africa, London, 1942.
8- Ingrams (W.H.), Zanzibar, Its history and its people, Holland, 1967.
9- Oliver (R) and Mathew (G), History East Africa, Oxford at the clarendon press, London, 1963, volume I.
10- Pearce (M.F.B.), Zanzibar the Island metropolis of East African, London, first published in 1920.
11- Reush (R), History of East Africa, Evang. Missionsverlag G.M.b.H, Stuttgart, 1954.
12- Stigand (C.C.H.), The land of Zinj Being an account of British East Africa, its ancient history and present inhabitants, London, 1913.
13- Strong (A), The history of kilwa journal of the Royal Asiatic Society, London, 1895, Volume I.
14- Trimingham, (J.S), The influence of Islam upon Africa, Longmans librairie du liban, first published 1968.
15- Walter (F), Africa a social , Economic, and political Geography of its major Regions, London, tenth edition, 1967.
16- Zindiiq, Abdimalik, Somaliyan Shalay iyo manta, Mog. 1976.
17- Öhman (Chr.), Historia, västeras Sweden, 1996.

III- المجلات والدوريات

أ- باللغة العربية

1- أحمد محمد بن محمد محمود، علاقة الجزيرة العربية بشرق إفريقيا، *مجلة الدارة*، العدد الثاني، السنة الثانية، الرياض، 1976.

2- حافظ صلاح الدين، صراع القوى العظمى حول القرن الإفريقي *عالم المعرفة*، العدد 49، جانفي 1982- الكويت.

3- الطيبي ، أمين ، الوجود العربي في شرق إفريقيا ، *مجلة كلية الدعوة الإسلامية* ، العدد 11، طرابلس 1994.

4- العراقي سيد أحمد العراقي ، معالم الحضارة الإسلامية في ساحل شرق إفريقيا في العصور الوسطى، *دراسات إفريقية*، مجلة بحوث نصف سنوية ، العدد الثاني، الشعبان 1406 هـ أفريل 1986.

5- نفس المؤلف، أرض الزيج الإسلامية، *مجلة كلية الأدآب* ، جامعة أم درمان الإسلامية ، العدد 1984.

6- عيسان علي ديس، أثر العرب المسلمين على الحياة السياسية والثقافية في مقديشوا خلال العصور الوسطى *مجلّة المنهل* ، العدد 14 أفريل، ماي 1994.

7- الغول محمود، العرب في سواحل شرق إفريقية إلى مجيئ البرتغاليين، *العربي*، العدد 35، الكويت، 1961.

8- فصل حسن يوسف، الجذور التاريخيّة للعلاقات العربية الإفريقية، *المستقبل العربي*، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، العدد 56 – 1983.

9- محمد جلال عباس، اللغة السواحلية، *مجلة نهضة إفريقيا* العدد 25، القاهرة 1959.

ب– بغير العربية (السويدية، الصومالية)

1- Mkoya, (D), Kiswalili, Nairobi, 1987.
2- Utrikespolitiska Institutet, Länder i fickformat nr 217, Somalia, Djibouti, Tryck Offest AB, Stockholm, 1999.
3- Utrikespolitiska Institutet, Länder i fickformat nr 211 Kenya, Tryck Offest AB, Stockholm, 1999.

IV- المناجد و الموسوعات

1- البستاني بطرس، *دائرة المعارف الاسلامية*، بيروت– لبنان، دار المعرفة (د.ت).

2- *المنجد في اللغة و الأعلام*، بيروت دار المشرق، ط38، 2000.

3- Snoxall, R.A, Kamusi ya Kingereza-Kiswahili, Dar essalam, first published 1958.

فهرس الموضوعات

الفصل الثاني : أثر العربية في اللغات المحلية

الفهارس